المجلد السادس عشر   ١٨٩ و ١٨٨   الجزء السابع والثامن

مجلة المجمع العلمي العربي

أنشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م

تنشر في دمشق مرة في الشهر

تموز و آب سنة ١٩٤١ م
رجب و شعبان سنة ١٣٦٠ هـ

دمشق

المجمع العلمي العربي

قيمة الاشتراك السنوي { في سورية ولبنان ٣٠٠ قرش سوري
الدفع مقدماً { وفي جميع الأقطار ٤٠٠ 〃 〃

مطبعة الترقي بدمشق

في الهزيمتين

من مذكرات الاستاذ محمد كرد علي

« وهي تعد الآن للنشر »

من أجمل الذكريات ذِكرياتُ الصبا وما فيه من مرَح ومغامرات ، وما يتخللها من توفيق وخيبة ، قد لا يصيب المرءَ مثلها ، ولا يجسر على اقتحام أخطارها ، اذا عَلتْ به السن ، « والذِكرياتُ صَدى السنين الحاكي » كما قال احمد شوقي . والذكرياتُ يُحرَص على تدوينها في الغالب لما تحمل في تضاعيفها من عبر وسلوى .

وهذا تفصيل ما وقع لي عند هزيمتي مرّتين ، من وجه من أراد بي السوء من عمال العثمانيين قبل اكثر من ثلاثين سنة ، وهو تدوين لا يخلو فيما أرى من طَرافة وتفكيهٍ .

ولكثرةِ ما انهزمتُ ، ووفقتُ في هزائمي كلها ، فأبنتُ عن مهارة في الهزيمة دعاني بعض الظرفاء « هزيمةً » وأرادني أحد العلماء من المصريين (العلامة احمد زكي باشا رحمه الله) ان أؤسس في القاهرة مدرسة أعلم بها كيف ينهزم الخائف الذي يترقب ، كما يتعلم الطلبة علوم الدين في الجامع الازهر وعلوم الدنيا في الجامعة المصرية . ولعلي كنت أجيب الطلب لو طال ذاك الحكم في بلادنا اكثر مما طال .

أقام والي سورية دعوى على جريدتي المقتبس ، واحتال لاقفال الجريدة والمجلة والمطبعة قبل صدورِ الحكم علينا ، وبعث الى مرجعه الأعلى في الاستانة يستأذن في الموافقة على مقترحاته ، فوافقه بلسان البرق على القاء القبض عليّ واقفال الجريدة والمطبعة . وجاءني بعد منتصف الليل شابان من محلة القيمرية ، كان لأحدهما اتصال بادارة البرق عرف بالأمر فطلب اليّ ان البس ثيابي حالاً وأسير معهما ،

فان الشرطة تأتي بعد حين الى داري لتفتشها وتقبض عليّ ، وكان الأمر كما قدّرا ، وسرت معهما وانا لا أعرفهما وغاية ما عرَف أخي أنهما مشتركان بالجريدة ومن أرباب المروءة من الشبان ، فبت ليلتي في دار أحدهما وهي دار الشيخ غزال ، وبعد أيام اكرم أهل الدار مثواي فيها انتقلت الى حيّ السوَيقة ، وأويت الى دار صديقي الشيخ عبد الرحيم البابلي يطربني بصوته وانشاده البديع ، ثم عدت الى داري واعددت معدات الرحيل ، وقلت : ما دمت مضطراً الى الاختفاء هنا في البيوت ريثما يُنظر في دَعواي ، وقد يطول النظر فيهـا عمداً ، فالأولى ان اصرفَ هـذا الوقت في اوربا ، وكنت منذ سنين أريد الرحيلَ اليها للدرس والبحث فتعوق العوائقُ .

وفي ليل الثلاثين من شهر رمضـان سنة ١٣٢٧ هـ ركبتُ من دمشق يرافقني صديقي السيد شريف تقي الدين ، وكان بطلاً نزّالاً يعرف الطرق والمسالك والمخابئ . ومن قرية القابون مررْنا قبيل الفجر ، ومنها الى قرى برْزة فمعربا فبسيمة فدَير مقرّن فكفير الزيت فدير قانون فكفر العواميد ، وفي هذه القرية بتنا ليلتنا الأولى . ومن الغد قصدنا الى سوق وادي بردى فعيتا الفخار فكامدِ اللوز فجبّ جينين فلالا فبعلول ، وفي هذه القرية بتنا الليلة الثانية . وفي اليوم الثالث قصدنا مشغرة بلد المدابغ ، وأنجدنا قاصدين جزّين . وعاد صاحبي الى البلد وسرت وحدي الى تاتِر فعماطور فالمختارة فدير القمر وبتُّ فيها ، ووصلت الى البارُوك مارًّا ببيتِ الدين ، وكفر نبرخ وبت ليلتين في الباروك ومنها سرت الى عين زَحلتا فبت فيها ، ومنها الى حمانا فقرْنايل فصليما وبت فيها ثلاث ليال ، ومنها الى بحنس فبكفيا فبيت شباب ، وقضيت في هذه القرية الكبيرة فيما أذكر ثلاث ليال ثم قصدت الى قرية الشاوية فقضيت فيها نحو عشرة أيام ، واخترت المقامَ في هذه القرية لأكون على مقربة من الفرَيكة بلد الاستاذ امين الريحاني فأقضي معه بعض ساعات النهار ، ومن الشاوية نزلت الى بيروت وبت في دار صديقي احمد إياس

ريثما تيسر لي بعد الغروب النزول الى باخرة نمساوية قبيل اقلاعها بقليل .

كان رآني في فندق دير القمر السيد صادق الكسم من تجار دمشق فأنكر عليّ جرأتي في رحلتي ، وقال لي ان الوالي يفتش عليك في كل مكان ، وكان الوالي عدوي نقل من دمشق الى بيروت ، فالأولى ان ترحل الى مصر براً . فقلت له هذا لا يتيسر الآن فقال : اذاً تأوي الى القرى ، وتتخذ من بيوت العجائز مسكناً ، ولا تنزل في الفنادق ، ولا تجتمع الى الرجال ، وعلى هذا أردتُ النزول في عين زحلتا في دار عجوز ، ولما وقعت عينها علي بكت ، فسألتها ما يبكيك يا أماه ؟ فقالت : كان لي ولد في اميركا مات منذ مدة وليس لي غيره ، وكان يشبهك بالصورة ، فلما رأيتك تذكرته . ثم سألتني عن ديني فقلت لها : برتستانت ، ففرحت ، وقالت : وأنا برتستانت وهذه التوراة ، واشارت الى المنضدة ، والقسّ يسهر عندنا . فلما سمعت باسم القس خفت ان يجيءَ تلك الليلة وتنكشفَ له حقيقتي .

وكنت قرأت تاريخ الاصلاح الديني ، وعلقت في ذاكرتي شبه البرتستانتية على الكثلكة ، حتى لأستطيع أن أتكلم ساعة في البرتستانتية ولا أعرف ، إلا أن يكون المخاطب قساً مثلاً ، فانه اذا كان ذكياً يتجلى له أمري بعد قليل . فلما قالت المرأة ان القسّ يجيئها من الليل ، ادعيتُ ان غرفتها لم تعجبني ، واكرمتها ببضعة قروش ، وخرجت الى اسفل القرية فنزلت في الفندق . وكنت صنعت اسماً أردت ان اتسمى به ذاك اليوم ، وهو اسم احد اصحابي المسيحيين بدمشق (خليل العبسي) فلما رآني صاحب الفندق وعرف اني دمشقي قال لي : ان خليل العبسي شريكي في هذا الفندق ، وكان الآن عندي وسافر ، فحمدت الله على اني لم استعر اسمه ، وسألني عن اسمي فاخترت له اسماً آخر من اسماء النصارى ، وأظنه أعفاني من السؤال عن مذهبي .

وفي لبنان لا بدّ لك ان تبوح بثلاثة وأنفك راغم : مذهبك وذهبك وذهابك ،

أمور كانت العرب تحرص على كتمانها · واللبناني لتدينه يحاول ان يعرفك بما تدين ، ليزيد أنسه بك وتبسطه معك اذا كنت على مذهبه ، ويريد ان يعرفك اذا كنت (مقرشاً) ام لا ، فان معاملة المومسر تختلف عن معاملة المعسر ، ويودُّ ان يطلع على مقامك عنده ليكون على بصيرة فيما يقول لك وما لا يقول · وأنا في تلك الحال لا استطيع ان اقول الا اني برتستانتي ، والحكومة تطاردني ، والوالي غاضب عليّ ، والأنظار ترمقني · وقد جازت برتستانتيتي على من نزلت عليه ، وهو خوري الشاوية وعلى الخورية امرأته · واتفق ان ابتعت من الطريق عدة كتب من كتب البرتستانت ، فتمت الحيلة على الخوري والخورية عشرة أيام · وكان الخوري يراني اقرأ كتب البرتستانت ، وانا اقصد بالقراءة الا أطيل الحديث معه ، وهو يسألني لماذا يقرأ البرتستانت كثيراً ، فأجيبه لأن رؤساءنا يوصوننا بذلك · واتماماً لما تحيلتُ له كنت اطلب من الخورية ان تأتيني بزجاجة عرق ، وليس من نيتي أن اشرب منها ، فاذا انصرفت عني أخذت قدحين وصببتها في الحديقة ، لأوهمها اني تناولت من عرقها ·

ودعوى البرتستانتية ما نفعتني في «بيت شباب» ذلك ان امين الريحاني قال لي إنه زار حبيس ماربطرس قرب بيت شباب ، وهو يلبس المسوح على عادة قدماء الرهبان ، وأنه كتب فيه مقالة بالانكليزية فقلت له : وأنا اريد أن أزوره واكتب فيه مقالة بالعربية · فقال لي : وانت في اي حال الآن ؟ فقلت له : لا بدَّ من زيارته ، ومن الغد استصحبت ولداً من ابناء القرية يدلني على قلاّية الحبيس ، فما إن حييته حتى كان أول سؤال وجهه إليَّ بالطبع سؤالي عن مذهبي · فقلت له : برتستانت ، فصاح : انت هالك ، انت هالك ، وهل انت الذي صبأت عن دينك الأصلي ؟ قلت له : جدي · قال : وهل لك راتب من البرتستانت ؟ قلت لا ، قال : أتعرف القراءة ؟ قلت : قليلاً · قال : اقرأ الكتاب المقدس تعرف ان لوثيروس ما قال بالبرتستانتية الا ليتزوج ، الى غير ذلك مما أفاض فيه · واظن

معلوماته عن النصرانية لا تزيد على معلومات العامة ، وربما كانت معلوماتي يومئذ أرقى من معلوماته .

وكان الحبيس اكرمني بحفنة من التين المجفف فأخذت أتناول منه ، والغلام الذي يرافقني يحدجني بنظره ، والغالب انهم لا يتناولون منحة القس امامه ويجعلونها للبركة فقط ، كما يتبارك حجاج المسلمين بماء زمزم . وبدأ المطر ينهمر ، فلا والله ما خلصت من عظاته ، وتكفيره لي ، وتخويبي عاقبة أمري ، الا بانقطاعها ، وهرولت أنا ودليلي ، وقد اعطيت الحبيس شبه وعدٍ ان اعود الى قراءة الكتاب ، وارجع الى حجر الكنيسة . ومرّ دليلي بما سمع من وعظ الحبيس لي . وقال لي ان اعمل بنصيحته حتى أنجو من العذاب يوم الدّينونة . ثم قال : (يا معلمي ، شفت هذا الحبيس ؟ كان قبل ان ينقطع في صومعته يقف ساعة امام المرآة يصفف شعره ويرطله ، وكان من شباب البلد ، وخطب ابنة عمه فأبت ان تتزوج به ، ولما امتنعت منه امتناعاً قطع معه أمله ، دخل في الرهبنة) فقلت له : هذا قد يقع فيعشق المرء ويخيب امله في عشقه فلا يجد غير الرهبانية والانقطاع الى الله عزاءً له وسلوى عما شغل قلبه مدة .

صادفت في الباخرة النمساوية التي هربت عليها من بيروت ، صديقي سعاد بك مدير صحة ولاية سورية ، وشقيق حسين جاهد بك رئيس تحرير جريدة « طنين » التركية في الاستانة ، ومن زعماء حزب الاتحاد والترقي ومن اكبر كتاب الترك ، ومعه صديقه صلاح الدين ججوز بك صاحب جريدة « قره كوز » الهزلية التي تصدر في الاستانة ، ففرح سعاد لتمكني من الهرب ، وسرته نجاتي من الوالي ، وكان من انسبائه الا انه مشهور بكراهته له ، وأحبّ ان يغيظه فقال لي سأكتب اليه : كيف تدعي انك كنت ناظراً للضبطية (مدير الامن العام) لمثل السلطان عبد الحميد ، وهذا عدوّك يمرُّ من تحت لحيتك في بيروت ولا تدري به فأين معرفتك ويقظتك ؟ فرجوته ان يرجئ هذا المزاح والتشفي من نسيبه على حسابي

الى مابعد اقلاع السفينة من ميناء يافا ، حتى لا يكون للوالي ولا للدولة العثمانية بجندها وحرابها سلطان عليّ .

وفي هذه الرحلة قضيت في باريز أشهراً حتى برئت ساحتي ، ورجعت الى بلدي عن طريق الاستانة . وكان الداعي الى الرحلة شراً فأنتج خيراً كثيراً .

* * *

أما الهزيمة الثانية فكانت أهم من الأولى لتشعبها وطول الطرق التي سلكتها براً ، ولأني كنت فيها كل ساعة معرّضاً للخطر ، وقد أرسلت حكومة الولاية بصورتي الى جميع المخافر والثكنات والمرافئ في سورية لأُعرف عند رجال الدرك والشرطة فيقبض عليّ حالاً . ونوعت الأساليب حتى أعفي أثري ويغمّ على الوالي أمري ، وأقنعه بأني خرجت من البلاد فما اقتنع ، حتى ان احد اصدقائي أتاني بورقة من اوراق الرسائل وبغلاف مطبوع عليها شعار البواخر الفرنسية (الميساجرى ماريتيم) وكتبت كتاباً بالرّيشة الدقيقة يشعر بأني كتبته على ظهر الباخرة ، ووضع في البريد من بيروت باسم أخي حتى ينفس خناقه قليلاً ويكفّ الطلب عني ، فلما ألقي الى الوالي تأمله فقال : الخط خطي ، والورقة المطبوعة ورقة الباخرة ، لكني مابرحت دمشق . وبهذا فقط أثبت انه ناظر ضبطية قديم .

لما فوجئت بهذه الدعوى الجديدة كنت راجعاً من رحلة الى المدينة المنوّرة استغرقت ثلاثة وعشرين يوماً . وكان غرض الوالي من هذه الدعاوي الملفقة اشتغالي بنفسي ، والراحة ، ولو أياماً قليلة ، من نقد صحيفتي . وكان الوالي في هذه المرّة أشد نقمة عليّ من المرات السالفة ، وذلك لاعتصامه بالاتحاديين ، وكانوا أتوا به الى سورية ليعاضدهم في انتخاب اعضاء مجلس النواب ، فعمل بما ارادوا ، مع انه ما كان من حزبهم ولن يكون ، فرأى بذلك الفرصة سانحة للقضاء عليّ آخر الدهر . ولما فررت أشاع في جماعة الشرطة والدرك ان كلّ من يأتي بي اليه حياً او ميتاً يُرَقيه من جندي عادي الى رتبة « يوزباشي » مباشرة ، عدا ما يعطاه من مكافأة نقدية .

كنت قادماً بعد العصر الى ادارة الجريدة ، فرأيت سرية من الجند تحيط بها ، فغمزني أحد شبان حي سوق ساروجا ان ارجع ، وكنت على بضع خطوات من الباب فرجعت وتبعني فقال لي : إن اخاك قبضوا عليه الساعة ، وهم في تفتيش الادارة . ولما رجعت الى داري وقع في قلبي ان القوة المسلحة لا تلبث ان تأتي للقبض عليّ . وكان الأمر كما حسبت ، فخرجت من داري سائراً على قدمي بين الحدائق لا ألوي على شيء ، ومعي السيد حكمة العسلي ، وانا افكر كيف اقطع نهر يزيد الحائل بيني وبين الجبل ، وكان الوقت ربيعاً ، والانهار طافحة بالمياه ، فطلبت الى فلاح هناك ان يجتاز بي النهر فمشى الى مجاز يعرفه ، وما كان اكثر تعجبه ان رأى شجرة صفصاف كبيرة قلعت من جذعها وأُسندت على شاطئي النهر ، كأنها جسر وُضع لأعبر عليه ، ومررت قليلاً حتى بلغت قبة السيار ، ومنها سقطت الى دمر اقصد بيت صديقي الامير عمر الحسني ، وكان حانقاً عليّ لأني كتبت ، او كتبت الجريدة ، تعريضاً بأخيه الامير عبد الله باشا لما قام بدعوة الجمعية المحمدية هو والسيد عبد القادر العجلاني في دمشق ، وكانت قامت هذه الجمعية بايعاز السلطان عبد الحميد ، لقلب النظام الدستوري ، وإعادة الحكم المطلق الاستبدادي ، وسيق القائمان بها الى الاستانة للمحاكمة وبعد جهد جهيد كتبت لها النجاة من القتل .

قصدتُ دار الأمير عمر لأنه افرنسي التبعة ، ومن المتعذر تفتيش داره ، ومع هذا احتاط وخبأني ثلاثة أيام في دار بعيدة عن داره . وفي اليوم الرابع ركبنا مع الامير طاهر ابن اخي الامير عمر من وراء جبال دُمر فبلغنا المزّة وفي تلك الليلة بحثت الحكومة عني في قرية المزة ، وكبست في صالحية دمشق دار صديقي عبد القادر بك المؤيد ، ولم نقف في المزّة بل اجتزنا ارضها فقط ومنها مررنا الى قرية بلاس وهي مزرعة الامراء آل الامير عبد القادر ، فنزلت في دار الامير محمد ابن السيد محي الدين ، وامه ابنة الامير عبد القادر الكبير ، فقضيت عنده أياماً على غاية من الهناء والطمأنينة ، حتى ابتاع لي الامير طاهر ثياباً بعضها من سوق الخلق

كالمعطف والعباءة ، وهذه اول مرة لبست بها في حياتي ثياب غيري ، ولا سيما مثل هذه الثياب الوسخة ، وقد تكون موبوءة ، وذلك لينطلي امري على من يراني ، وكنت اطلقت لحيتي من يوم استترت ، وشعثت هندامي حتى أشبهت صورتي بعض سكان الحاضر في حماة . وكان جاءني احد اصدقائي عبد القادر آغا سكر من اعيان حي الميدان وابطال الرجال يريد ان يصحبني الى مصر فظننته هازلاً فاذا هو يجدُّ ، ورجع بعد ايام يركب حصانه ، وقد ابتعت حصاناً يحملني معه ، وفي الساعة التي كانت النار تلتهم سوق الحميدية بدمشق ، والحكومة والناس مشتغلون باطفائها قال الوالي : الآن يفرُّ صاحب المقتبس مغتنماً فرصة اشتغالنا بهذه الفادحة ، فأمسكت عليَّ محطات السكك الحديدية كلها ، وفاته ان لدمشق عشرات من المنافذ وان من اتهم تهمتي لا يهرب من طريق السكة الحديدية ما دامت الأرض واسعة . ومررنا عصر ذاك اليوم من بلاس حافظاً لصديقي الأمير محمد اجمل ذكرى ، وقد كتم وجودي في بيته حتى عن اهله وانسبائه ، ومنهم من كان يكرهني ، وربما كان يتقرب من العثمانيين بدلالتهم على مخبئي .

* * *

سلكنا سبيلاً معوجاً من اول مرحلة رحلناها من حوش بلاس ، فاجتزنا ارض المزة وبلاس والاشرفية وصحنايا والدرخبية والطيبة وشقحب من قرى وادي العجم فدير العدس فالحارة من اقليم الجيدور حتى النقرة من اقليم الجولان ، وانتهينا عصر اليوم التالي الى نهر الرّقاد ، ولم نهوّم في الطريق الا دقائق قليلة ، لأن صاحبي كان يوجس خيفة من ان يعرف بالامر أحد من اصحاب الحكومة فيلحق بنا الجند ، وكنا رأينا في الليل ، والقمر ليلة البدر ، بضعة انفار من الدرك فوقفنا عليهم وشربنا ماء ، وكلمهم صاحبي بلهجة مغربية فعرفوا اننا مغاربة (وسأل أحدهم في عودته عن سبب مرابطتهم هناك ، فقالوا : (ان صاحب المقتبس سيمر من هذه الأرجاء وقد امرتنا الولاية بالقبض عليه)

وتعرّف صاحبي عبد القادر آغا في الجولان الى رجل نجدي اسمه عبد العزيز المحيسنيّ يقود الى مصر مع ستة من الرعاة سبعة وسبعين جملاً ، هي ملك احد اصدقائي الحاج ياسين دياب من تجار دمشق . فذكر عبد القادر آغا للمحيسنيّ ما وقع لي وما يتوقع من شرّ يصيبني اذا سقطت في يد أحد رجال الحكومة ، وانه رافقني حتى يبلغني مأمني ، فقال انه سمع بقصتي في دمشق . ومما قال له صدبقي انك اذا اخذته تحسن لأهل دمشق ، وهو يحمل دراهم يعطيك بقدر ما تحب . فأجابه : تقول لي انك تحسن لأهل دمشق اذا هرّبته ونجا بروحه ، وتعرض عليّ ان آخذ منه اجرةً ، ومتى كان العربيُّ يأخذ أجراً على المعروف .

وعاد صاحبي عبد القادر آغا سكر الى دمشق وسرت على بركة الله مع جمال النجديين ، فقطعنا سهل الجوْلان وبتنا تلك الليلة دون عقبة فِيق . واقترب مني ساعة نزولي فارس من خفراء شركة الدخان ، يحادثني ويتحبب اليّ ، فأزعجني بكلامه ، ولاحظ أني متعب كثيراً فقال لي : مالك وللجمال تتجر بها — ورُعاة الجمال يوهمون كل انسان اني انا صاحبها — لو فتحت لك دكاناً في سوق باب البريد ببلدك لعشت في نعيم ، وخلصت من هذا الشقاء ، ومن قطع الصحاري والبراري ، فتثاءبت وتناومت . فقال لرفاقي : « انه تعبان المسكين » وتركني وانصرف

ومن الغد هبطنا العقبة فأشرفنا على اراضي غوْر بيسان وبحيرة طبرية ونهر الأردنّ (الشريعة) فاجتزنا الجسر القديم المتداعي سباحةً على الدواب ، ثم توقلنا الجبل الى موقع الدّلايكة ، وهو بين جبلين منفرجين متآزبين ، وبتنا ليلتنا في سوق الخان بلد الصبيح على ساعتين من الناصرة . وفي اليوم الرابع دخلنا في غابة عظيمة من شجر البطم نحو ساعتين ، فبلغنا قرية دبورية ، وفي منقطع ارض هذه الدسكرة يبتدئ مرج ابن عامر (سهل يَزْرَعيل) فقطعناه عرضاً في اربع ساعات حتى بلغنا قرية اللجون ، ومنها الى وادي عارَة ، وطوله ثلاث ساعات ، وهو ضيق متوازي الأضلاع . وبتنا الليلة الخامسة في عيون الأساور على ساعتين من قيسارية ، واجتزنا

في اليوم السادس بقرى نابلس مثل قاقون وقلنسوة والطيرَة ومسكة فبلغنا نهر العوْجاء على ساعة ونصف من يافا ·

وحدثني من اثق به بعد مدة ؛ أن جماعة من اعيان نابلس وشبانها المثقفين ؛ ومعظم شبانها مثقف ؛ استصرخوا قرى نابلس التي يلاحظ اني اجتاز بها ؛ وطلبوا الى بعض سكانها اذا رأوني ان يحملوني الى مكان بعيد ؛ ويكرموا مثواي ؛ ويبعدوني عن انظار كل من له علاقة بالحكومة ؛ فكان اهل القرية من القرى المستصرخة ينتدبون أُناساً من شجعانهم واصحاب المروءات منهم يقفون على الطرق في الليل والنهار ، لينقذوني من مخالب الظالمين · وباتوا بها يترصدون المعابر والمسالك أياماً وليالي حتى قرأوا في الصحف المصرية أني بلغت مصر · وهذه مروءة عربية استرق بها النابلسيون قلبي ما دمت حياً ·

وفي اليوم السابع اجتزنا قرى الساحل مثل جبنة ، سدود ، مجدل ، بربرة ، بير هِدِيد ؛ غزة · ورأينا بعض المستعمرات اليهودية الزاهرة بالعمل والانتاج · وقضينا الليل في دير البلح · وفي اليوم الثامن دخلنا في رمال على نحو ثلاث ساعات من غزة ، وبعد مسيرة ست ساعات بلغنا محطة رفح أول حدود مصر والشام · وفي اليوم التاسع دخلنا في رمال خمسة أيام حتى قالت الاسماعيلية : ها أناذه · وكنا نسير في هذه الجفار على مقربة من البحر لا نبعد عنه كثيراً ، والرمال لا يتبدل شكلها ·

ذكرت هذه المراحل لأني قطعتها على راحلتي وما كنت لأقطعها لو خُيرْت · وقد استفدت من هذه الرحلة فائدة جغرافية وطوبوغرافية لا تقدَّر · وما كان يومئذ خط حديدي يصل بين آسيا وإفريقية او بين دمشق والقاهرة ، ولا طرق معبدة تسلكها السيارات · وقصدت بتقييدي هذا تسجيل ظاهرة غريبة ، أو بدْع قديم بَطلَ ، وذكرى أيام قضيتها في عالم الأباعر فاستحليتها وهي مُرَّة ·

* * *

قلت في محاضرة ألقيتها في الاسبوع الذي بلغت فيه القاهرة ، في فندق

ادن بالاس ، اجابة لمقترح جماعة من السوريين ، بعد ان عددت ما وقع لي منذ خرجت من بلدي الى ان دخلت الاسماعيلية ، وألممت بتاريخ ذاك الطريق الذي كان من اعمر الطرق منذ كان الاسلام : وكأن رحلتي في الشهر الماضي الى الحجاز وجنوبي الشام ونزولي على اهل البادية من اهل المدر والوبر كانت مقدمة لما امتحنت به هذا الشهر من مؤاكلة الاعراب في صحفة واحدة وفقدان الملعقة والشوكة والسكين والفوطة والكأس ، والاكل من طعامهم ثُمنِ العراق والبرغل جريش الحنطة والتمر والخبز المعمول بالملة او على الساج يسجر ببعر الأباعر، والرمال تسفو فتدخل كل ما يعمل هناك من خبز وأُدم ، ومأكول ومشروب ومطبوخ ومسلوق ومقلي ومعجون .

ولقد حملوا لي الماء في قربة فما هي الا ساعات حتى تغير منه الطعم واللون والرائحة ، وبقيت خمسة أيام أُسقى من هذا الماء وأعده نعمة بالقياس الى مياه الجفار البشعة المهوّعة ، وهي بعض ماء البحر روّقتها الرمال قليلاً . وأذكر ان « خَويي » الحيسني ناداني مرة ، وجمالنا مسرعة في طريقها ، وحاديها يحدو لها بصوت يذكر بنجد واهل نجد ، فالتحقت به مسرعاً ، وما انحرفنا دقائق عن قارعة الطريق حتى كنا وسط فريق من العرب فاستسقى فأتوه « بذُكرة » شرب منها واعطاني فاذا بها لبن رائب ثم أرادني ان اشرب وأشرب ، وأردت ان اعطيهم شيئاً فأشار اليّ ألا أفعل . وكنت اتمنى شربة واحدة من هذا اللبن كل يوم وادفع فيها جنيهاً وأنا غير مغبون . وكنا مَرَّة نزولاً على بئر أُنشئ على عهد الخديوي عباس الثاني وعليه زُبر اسمه فأتاني وليد بمقطف من الطماطم (البندورة) الصغيرة فأحببت ان أعطيه ريالاً فصرخ خَويي « بشلك » ثم قال لي : اذا توسعت في اكرام البدو هذا التوسع تضرُّ بنا لأنا لا نزال نجتاز بهم طول السنة فاذا تعودوا على الكثير نضطر ان نعطي كل مرة كما اعطيت فلا يستقيم لنا بعد ذلك حال معهم .

وكنت في الليلة التي نجتاز في صباحها برفح آخر الحدود العثمانية المصرية قلقاً جداً ، وقضيت ليلي وانا في هواجس أُدبر وأُقدر . ومررت قبيل الفجر أمام قطار

الجمال وأنا أقول في نفسي : الآن فصل الخطاب فاما ان ادخل ارض مصر ناجياً من العثمانيين ممتعاً بالنعيم بعد هذا الشقاء ، أو اعود أدراجي وانا في قبضة الترك الى مُطبق من مطابقهم ، ألقى ما ألقى من معاملتهم الجائرة . وبعد خمس ساعات سألت المحيسني متى نبلغ رفح فقال : قطعناها منذ كذا ساعة ودفعنا عنك للجندي ثمن علبة دخان لما اعترضنا قائلاً ان اخراج الخيل من الأرض العثمانية ممنوع فأقنعناه بأن هذا حصان صاحب الجمال الذي تراه . فأخذ « البشلك » وهي قطعة تساوي قرشين ، ولم يمسسنا بسوء ولم يحقق من امرنا غير ما رأى .

وسعدت في هذه الرحلة ان رأيت بين الشام ومصر صورة مصغرة من عيش اهل جزيرة العرب ، وذلك بالاختلاط مع تجار الجمال ورعاتها ، وكلهم نجديون لا يعرفون الفضول ، وما رأيت أحداً سأل خويي عبد العزيز عني بالإشارة ولا بالعبارة ، وكانوا في كل مساء وصباح يختلفون الينا ونختلف اليهم ونشرب القهوة معاً وحديثهم في البعير وسوقه ورعيته وثمنه ورواجه وكساده . ولم اسمع في اربعة عشر يوماً بلياليها كلمة هُجر وبذاء ولا تجديفاً ولا لعناً ولا نميمة ولا غيبة ولا كذباً ولا منكراً . وكان أولئك الأعراب بأجمعهم مواظبين على صلواتهم ، يتيممون بالرمل اذا اعوزهم الماء ولا يسرفون فيه اذا وجد . وأنست بلهجتهم وفيها كثير من الفصح ولها رنة تطربك .

نزلت في الخيام في الشهر الذي وقع قبل هذه الرحلة ثلاث ليال في أرض ابل على شيخ من عرب الشرور اسمه محمد ابراهيم ، وأخرى في بير البيطار على محمد ابي الفرج شيخ بني عطا ، وهذان المنزلان على مقربة من وادي موسى ، وبت ليلة في الزيزاء (الزيزة) عند صديقي فواز بن سطام شيخ مشايخ بني صخر فرأيت العيش البدوي على اختلاف درجاته ، وكان العيش في الليلتين اللتين قضيتها في بلاد الشراة « ديمقراطياً » وفي ارض البلقاء « ارستقراطياً » نمنا فيها على فرش الحرير محشوة بريش النعام ، وشربنا في الصبح لبن النياق .

سألني احد الأعراب اي العيش افضل لنا نحن البدو : الحضارة ام البداوة ؟ فقلت له : ابقوا على بداوتكم واقتربوا من المدنية ما سمحت لكم حالتكم واياكم ان تغفلوا عن تعليم اولادكم . واني أخاف اذا عاشرتم الحضر فأكثرتم من عشرتهم ان يختلط عليكم امركم وتخرجوا عن فطرتكم واخلاقكم الى ماتئن منه حضارتنا من النفاق والكذب والتزوير والخديعة . ولولا الغارات المتواترة عندكم لآثرت ان اعيش في هذه الديارات بين البوادي ولو اشهراً في السنة .

زرت في تلك الرحلة عَمان والصلت والكرك ومادبا ومؤتة ، وجئت معان فقصدت الى متصرف الكرك صاحبي القديم حليم بك ابو شعر وطلبت منه ان يُصحبني بدركي لزيارة وادي موسى فنادى دركياً واسرّ اليه شيئاً في أذنه واظنه قال له ان ينتبه لحديثي مع البدو وان يجيئه بخبري كله . وشكرتُ له لأنه لم يقل له جئني برأسه ، ولو فعل لجلب السرور الى قلوب الاتحاديين ، القابضين على زمام المملكة يومئذ ، ولرقيت درجته في ذاك الاسبوع الى والٍ . وانتهى بنا السير قبيل الغروب الى عين ماء عذبة على خمس ساعات من معان فقلت للدركي : نتعشى هنا ، فاستنكر ذلك وقال : وهل يمكن هذا وبعد ساعة نصير الى قبيل العرب فيذبحون لنا ؟ فأقنعته بأن نأكل من زادنا لأني لا أُريد ان اشق على الفقراء فنزل واكلنا .

وفي العشاء كنا نزولاً على العربان فما ان ترجلنا حتى سمعت صوت « المهباج » لعمل القهوة وأصواتاً أخرى تنبئ بأن الخروف يذبح . فقلت للدركي : قل لهم انا تعشينا ، فقال : هـذا كلام لا يسمع ، دع هؤلاء الذين تراهم من الصبيان والشبان والرجال يأكلون الليلة على جرايرك (بسببك) فانهم ينتظرون قدوم الضيف على شيخهم حتى يذبح له فيأكلون الفضلات . وانتظرنا ساعتين فخرج الخروف في قصعة صغيرة وجعلت تحته رقاق من الخبز لتت بالمرق فأصبنا منه قليلاً ارضاءً لهم ، وكنا نراهم ، والقريب من القصعة يتبعض للبعيد عنها ، فتسافر قطع اللحم من

فوق رؤوسنا وتتعاور العظامَ ايدي البدو فأسمعهم وهم يَعرقونها بأسنانهم كما يعرق الكلاب العظم . وخمنت من تناولوا من الخروف تلك العشية بنحو خمسين نسمة ، ولو لم نجئهم لباتوا على الطوى . ولو قدرت اننا سننزل على مثل هؤلاء الأعراب يكرموننا هذا الاكرام على فقرهم لحملت اليهم من مَعان على الأقل بعض الثياب اكسو بها بعض ابنائهم وبناتهم لأنهم كانوا اشبه بعراة .

وأعظم ما ملأ نفسي مروراً في رحلتي الى المدينة المنوَّرة ان رأيت العمران بدأ يسري بفضل السكة الحجازية ، الى بعض المحطات ، وأخذت المدنية تدخل في تلك القفار ويجري الانتفاع بالمياه المخزونة في بعض الأودية في ارواء الأَرض ، فأنشئت الحقول والحدائق بعد بلدة معان ، وبدأ الأعراب هناك يتذوقون طعم السكنى ، ويتعهدون الزرع والشجر ، ولو ظلَّ استثمار الخط الى اليوم لرأيت قرىً قامت على جانبي هذا الطريق الطويل وصار للبادية ما تتبلغ به وتعيش ولقامت بعد الديار الشامية حتى مدينة الرسول «هجرات» على النحو الذي قامت في بلاد نجد بفضل الملك عبد العزيز آل سعود فأغنى اهلها عن الغارة ، وعلمهم الحرث والكرث ، وحضرهم وحبب اليهم عيش المدَر بعد عيش اهل الوبر .

ولاحظت في مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ان جميع العناصر الاسلامية تدخل بخشوع وادب لا يكونان في أبناء العرب ، فهؤلاء يضطجعون ويأخذون حريتهم ، ويلقون بنعالهم كيف اتفق ، مما لا يصدر مثله من الهنود والأفغان والجاويين والايرانيين والقوقازيين والسودانيين والاتراك ، كأن ابناء العرب يرون أن صاحب هذا القبر الشريف هو بعض ابناء عمهم او احد إخوتهم ترتفع بينهما الكلفة على ما هو الحال بين ابناء أُسرة واحدة .

وتسألني وقد أتعبتك بما قصصت عليك ، وأنت هل تعبت بقطع هذه المساوف التي قطعتها راكباً حتى بلغت مصر ، فأقول لك ان ربك يبتلي عبادَه ويُعينهم . كنت اذا ركبت دابتي الى قريبي ثلاثة ارباع الساعة أضطجع اذا نزلت عنها

ساعة او ساعتين للاستجمام ، ولم تنقص اقل مرحلة قطعناهـا هذه المرة عن اثنتي عشرة ساعة ، وكثيراً ما كنا نسير ثماني عشرة ساعة في اليوم ، ومرنا في اليوم الاول اربعاً وعشرين ساعة متتابعة ، فكانت مرحلتنا الأولى كسائر المراحل غير شاقة ، وما أحسست بتعب يذكر ، وقد نكتفي بنوم ثلاث ساعات ننشط عقبها للركوب كأننا نمنا ثماني ساعات على فراش وثير ، ذلك لأن نومنا كان بالعراء على الأرض بعيدين عن المستنقعات والقاذورات . وكنت أنشط اليوم بعد اليوم وآلف هذا العيش لا اتبرم به كثيراً لأنه جديد بالنسبة لابن المدن والرفاهية .

ولما بلغت بعد ظهر اليوم الاخير من هزيمتي الثانية مدينة القاهرة قصدت الى « اسبلنديد بار » تواً ولم أكن احمل معي شيئاً الا ما عليّ من ثياب وسخة . فكان كلما جاء واحد من أصحابي الصحافيين يعمى عليه امري ، حتى اتكلم واضحك ، أو يذكر له من سبقه اسمي الصريح ، وتجمع عليّ منهم بعد ساعتين عشرات شغلنا نصف البراني من القهوة ، والانظار تحدجنا ، والطليان ينظرون الينا شزراً ، وكان مقهاهم وراء مقهانا ، ولعلهم ظنوني بعض أولئك الأعراب الفارين من ليبيا ، وكانت الحرب يومئذ على ساق وقدم بينهم وبين جيوش العثمانيين . واخذني حقي بك العظم وصورني بذاك الهندام العجيب ، وساقني رفيق بك العظم امامه الى داره ، فقلت له : انزل في الفندق ، فقال : ما من فندق في القاهرة يقبلك وانت على هذه الوساخة . ومن الغد خلعت حلتي ، وحلقت لحيتي ، وعدت الى قيافتي . وعندهـا بدأ التعب يدب في جسمي ، ولم ترجع اليّ قواي الا بعد نحو اسبوعين ، وحمدت الله على السلامة ، وأنشدت مع من أنشد « أنت يا مصر ملجأ الأحرار »

حلقة مفقودة

من سلسلة التاريخ الاسلامي

يحتاج تاريخنا الاسلامي الى معالجة دقيقة وتهذيب وتنسيق ، فكثير من ابحاثه ناقصة مبتورة ، وكثير من حلقاته مبعثرة متفرقة ، وكثير من مصادره لا تزال حتى اليوم في دور الخفاء ، وكثير من كتبه المطبوعة تحتاج الى تصحيح وتحقيق وفهارس علمية .

ان عدداً كبيراً من دول وامارات اسلامية لا يعرف عنها شيء الا بعد بحث وعناء ، فلو اراد الباحث ان يعرف شيئاً عن دولة بني رسول التي كانت في اليمن ، او عن السلجوقيين ، او السبكتكيين ، او الخوارزميين ، او الامارات التي قامت في بلاد الروم (الاناضول) لما عرف عنها الا شيئاً قليلاً بعد عنت كبير ، وعناء عظيم مع وجود مصادر عديدة في هذه الموضوعات . وهناك ما هو أشد خفاء ، واكثر عناء مثل البحث عن الامارات والسلطنات الاسلامية في الحبشة والسودان ، وبلاد الهند ، وايران وغيرها .

عنيت منذ خمس سنين بدراسة واسعة عن الدولة الايوبية واماراتها وعصرها وكان مما عثرت عليه أثناء دراسة العصر الايوبي ، والممالك الايوبية مملكة مستقلة قامت في مدينة (حصن كيفا) وعاشت نحواً من ثمانية عشر ومئتي عام .

ومن العجيب ان تعمر سلطنة مثل هذا العمر الطويل ولا تدخل في سجل التأريخ ولا يشير اليها احد من المؤلفين الا عفواً

فمعلمة الاسلام لم تشر اليها في بحث الايوبيين ، وبحث (حصن كيفا) ونقلت عن كتاب (شرف نامه) عبارة تدل على هذه السلطنة دلالة مبهمة .

فقد جاء في بحث (اوزون حسن) انه انتزع (حصن كيفا) من أيدي الاكراد

الأيوبيين ، وهذا كل ما أشارت اليه . ولم نر لهذه المملكة ذكراً في الاجزاء المطبوعة من كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ، ولا في تاريخ الحافظ ابن كثير ، ولا في تاريخ القرماني مع ولوعه باستقصاء الممالك والسلطنات والامارات .

وأشار لهذه المملكة القلقشندي بما لا يشفي الغليل ، ومعظم ما نقله عن كتابي التعريف والتثقيف ، وكانت نقول كتاب التثقيف مضطربة مشوشة مثل نقول القلقشندي [1] فهما لم يستندا في بحثهما الى تحقيق علمي ، وانما اخذا معلوماتهما من افواه بعض التجار والقصاد [2] وقد استطعنا ان نجمع حلقات هذه السلسلة الايوبية من كتب التراجم بعد ان أعيانا البحث عنها في كتب التاريخ السياسي ، ولكننا لم نستطع التعرف الى خمسة من ملوكها وان كنا قد علمنا أسماءهم .

حصن كيفا [3]

مدينة من مدن الجزيرة الفراتية ، قائمة على الشاطئ الأيمن من نهر دجلة ، وهي في منتصف الطريق تقريباً بين ديار بكر وجزيرة ابن عمر ، وتبعد عن كل منهما مسيرة ثلاثة أيام .

وهذه المدينة عريقة في القدم ، فالمغاور والكهوف التي لا تزال فيها ترجع الى ماقبل العصر الكلداني وأصبحت (حصن كيفا) حسب التنظيم الاداري التركي جزءاً من قضاء العوينة في لواء ماردين (ولاية ديار بكر) وهي قائمة بين قضاءي العوينة ومدياد . وسكانها أتراك واكراد وارمن وسوريون مسيحيون

تاريخها الاسلامي

انضمت هذه المدينة مع بقية الجزيرة الى المملكة العربية الاسلامية بين سنتي

(١) راجع صبح الأعشى ج ٤ ص ٣١٧ (٢) جمع قاصد وهو من ترسله الحكومة لايصال رسائلها الرسمية (٣) ملخص من معلمة الاسلام ، وصبح الأعشى ، والنجوم الزاهرة ، ومعجم البلدان وغير ذلك من كتب التاريخ وتقويم البلدان .

(١٨ — ١٩ هـ) أيام خلافة عمر بن الخطاب · ولما ضعفت الخلافة العباسية دخلت حصن كيفا تحت سلطة بني حمدان ، ثم بني مروان ، ثم بني أرتق الذين جعلوها عاصمة لهم منذ سنة (٤٩٥ هـ) فبلغت في عهدهم اقصى فخامتها وروعتها · وفي سنة (٥٧٩) حاصر صلاح الدين بن أيوب مدينة آمد وجاء لخدمته نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا فأحسن صلاح الدين لقاءه ووعده بآمد · فلما فتحها صلاح الدين في السنة المذكورة وفى بوعده لصاحب حصن كيفا واعطاه آمد ، ومن ذلك الوقت خضعت حصن كيفا للمملكة الايوبية خضوعاً معنوياً مع استقلالها الذاتي · وبين سنتي (٦٢٩ — ٦٣٠) اخذ الملك الكامل صاحب مصر مدينة آمد مع حصن كيفا من الملك المسعود بن الملك الصالح ابي الفتح محمود بن نور الدين محمد بن فخر الدين قرا ارسلان بن ركن الدولة داود بن قطب الدين سقمان بن ارتق · واصبحت يومئذ من الممتلكات الايوبية وفي حدود سنة (٦٣١—٦٣٢) اعطى الملك الكامل حصن كيفا لابنه الملك الصالح نجم الدين ايوب فبقي فيها حتى مات ابوه فترك الحصن وتوجه الى الشام وحصلت له وقائع كثيرة حتى صار ملكاً على مصر سنة (٦٣٧) · وكان ابقى في الحصن ابنه الملك المعظم توران شاه جد ملوك الحصن وهم الذين وضع هذا البحث فيهم

الملك المعظم توران شاه

هو جد ملوك حصن كيفا واصلهم الذي يرجعون في النسب اليه · جعله ابوه الملك الصالح نجم الدين ايوب لما ذهب الى مصر نائباً عنه على حصن كيفا وغيرها من اعمال ديار بكر وهو يعتبر آخر ملوك مصر من الأيوبيين · ولما توفي والده الصالح نجم الدين سنة (٦٤٧) والافرنج محدقة بالديار المصرية أخفت شجرة الدر موت الصالح أيوب ، وصارت تدبر الامر خوفاً من اضطراب البلاد ، وارسلت الى حصن كيفا تدعو توران شاه للحضور الى الديار المصرية فحضر اليها في اول

المحرم[1] سنة (٦٤٨) فأعلن حينئذ موت الملك الصالح وملكية ابنه المعظم توران شاه . واتفق ان العساكر الاسلامية انتصرت في ذلك الوقت انتصاراً باهراً على الافرنج الواغلين في الديار المصرية فاستبشر الناس بيمن سلطانهم الجديد استبشاراً عظيماً ، ولكن الملك الجديد كان شاباً غراً منهمكاً في اللذات بعيداً عن السياسة والتدبير ، نشأ في بيئة تختلف كل الاختلاف عن الديار المصرية . ويقول الامير حسام الدين ابن ابي علي كنا نقول للملك الصالح : لماذا لا تحضر ابنك الى مصر ؟ فكان يقول دعوني من هذا فألححنا عليه يوماً ، فقال : اجيبه الى ها هنا أقتله ؟ والظاهر من هذا أن أباه كان لا يراه أهلاً لأن يملك على مصر ، ومن أعماله انه ارسل الى شجرة الدر زوج أبيه — وكانت قد ذهبت الى القدس ابتعاداً عنه — يهددها ويطالبها بالاموال ، فكاتبت الأمراء واغرتهم به وكانت نفوسهم تغيرت عليه لتهديده لهم بالقتل ايضاً فاتفقوا على قتله ونفذوا ذلك ، فكان مدة ملكه على مصر أقل من شهر . فقد قدم اليها في مستهل المحرم وقتل يوم السابع والعشرين من هذا الشهر سنة (٦٤٨) هذه رواية النجوم الزاهرة

ويقول ابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات : ان المعظم توران شاه كان قوي المشاركة في العلوم حسن البحث وانه لما دخل دمشق قام الشعراء بين يديه فابتدأ العدل تاج الدين بن الدجاجية فقال :

كيف كان القدوم من حصن كيفا ... حين ارغمت للاعادي انوفا

فأجابه المعظم بقوله :

الطريق الطريق يا الف نحس ... تارة آمنا وطوراً مخيفا

ولما قتل رثاه نور الدين بن سعيد بقصيدة منها :

ليت المعظم لم يسر من حصنه ... يوماً ولا وافى الى املاكه

---

(١) هذه رواية صاحب النجوم الزاهرة ، وأبو الفدا يقول انه وصل المنصورة في ٩ ذي القعدة وكانت مدة ملكه شهرين وأياماً .

ان العناصر اذ رأته مكملاً حسدته فاجتمعت على اهلاكه

الملك الموحد تقي الدين عبد الله بن الملك المعظم توران شاه

يعد هذا الملك اول ملوك الحصن من الايوبيين المستقلين بها ولكننا لا نعرف عنه شيئاً غير ما ذكره عنه ابو الفداء في تاريخه · فقال عنه في حوادث سنة (٦٣٨) انه بعد ذهاب ابيه تورانشاه الى مصر بقي مالكاً لحصن كيفا الى أيام التتر وطالت مدته بها

الملك الكامل مجير الدين ابو بكر شادي

وهو ثاني ملوك الحصن ، ولا نعرف عنه غير كنيته ولقبه جاء ذكرهما عفواً في الدرر الكامنة في ترجمة ابنه ايوب ونصه : كان المعظم لما تقرر في سلطنة الديار المصرية نقلا من حصن كيفا ترك ولده الموحد تقي الدين عبد الله فاستمر في مملكة الحصن المذكور · وتولى بعده ولده الكامل ابو بكر · وهذا كل ما عرف عنه · وفي الضوء اللامع للسخاوي ما يفيد بان اسمه شادى ولقبه مجير الدين · وفي شذرات الذهب ايضاً ما يفيد بان اسمه شادى · وقد خلف ولدين توليا بعده ، احدهما ايوب ، والآخر محمد

الملك الصالح نجم الدين ايوب بن ابي بكر شادى

وهو ثالث ملوك الحصن ، ويقول عنه في الدرر الكامنة انه استقر في المملكة بعد ابيه الملك الكامل ابي بكر فحج في سنة ٢٦ فقدم القاهرة وتلقاه الملك الناصر واكرمه ، فلما رجع من الحج عارضه اخوه فحاربه فقتل ايوبَ هـذا وولدَه واستولى اخوه على المملكة وذلك في اوائل سنة (٧٢٧) وذكر مثل ذلك ابو الفدا في حوادث سنة (٧٢٦) ولم يثبت حجه فيقول: وفي شعبان حضر نجم الدين صاحب حصن كيفا متوجهاً الى الحجاز ، ثم ابطل المسير الى الحجاز وسار الى عند السلطان الى مصر فأنعم عليه السلطان وأعاده فعبر على حماة وتوجه الى حصن كيفا وفيها حال

وصوله قتله اخوه ، وكان اخوه مقيماً هناك ، وملك اخوه الحصن والمذكوران من ولد تورانشاه ابن الملك الصالح ايوب ابن الكامل ابن العادل ابن ايوب ، واشار لهذه الحادثة ايضاً العمري في التعريف (ص ٣٣) ولقبه بالملك الصالح فقال : وكان آخر وقت منهم الملك الصالح ، قصد الابواب السلطانية ، فلما اتى دمشق عقبته الاخبار بأن اخاه قد ساور سريره ، وقصد بسلطته سلطانه ، فكر راجعاً ولم يعقب ، فما لبثت الأخبار ان جاءت بأنه حين صعد قلعته ، وكر نحو سريره رجعته ، وثب عليه اخوه المتوثب فقتله وسفك دمه ، ثم أظهر عليه ندمه ، وكتب الى السلطان[1] فأجيب بأجوبة دالة على عدم القبول لأعذاره ، والسرائر مكدرة ، والخواطر بعضها من بعض منفرة اه

هذا كل ما اطلعنا عليه من اخباره ولكننا لم نطلع على اسم اخيه الذي ثار عليه وقتله وتولى بعده ، كما اننا علمنا ان نسله انقطع ما دام اخوه قد قتله مع اولاده

وحينما نرجع الى تراجم ملوك الحصن لا نجد احداً يتصل نسبه بنجم الدين هذا ، وانما نرى الملك العادل فخر الدين سليمان قد ذكر نسبه هكذا : سليمان بن الملك الكامل غازي بن محمد بن ابي بكر شادى ، ومن هذا يظهر ان محمداً المذكور هو اخو نجم الدين . ولكن هل هو الذي قتله وتولى بعده ام هناك اخ ثالث ؟ والظاهر انه هو الذي تولى بعده وان كنا لا نجزم بذلك .

الملك الكامل مجير الدين محمد

وهو رابع ملوك الحصن ، وهو ابن ابي بكر شادى ، والمظنون انه هو الذي قتل اخاه الملك الصالح نجم الدين ايوب بن ابي بكر شادى ، ولا نعرف عنه اكثر من ذلك

(١) وهو الملك محمد بن قلاوون تسلطن للمرة الأولى سنة (٦٩٣) فبقي سلطاناً سنة واحدة ثم خلع لصغر سنه ، ثم تسلطن للمرة الثانية سنة (٦٩٩ — ٧٠٠) فبقي سبع سنين ثم خلع نفسه وذهب إلى الكرك ، ثم تسلطن للمرة الثالثة سنة (٧٠٢) فأقام ملكاً حتى توفي سنة (٧٤١) .

الملك المجاهد شهاب الدين غازي

ويعد الملك الخامس من ملوك الحصن ، وهو ابن مجير الدين محمد ولا نعرف عنه شيئاً .

الملك العادل فخر الدين سليمان

وهو السادس من ملوك الحصن ، وهو ابن المجاهد غازي ، ابن الملك الكامل محمد ، ابن الملك ابي بكر شادى ، وبواسطته عرفنا اسم ابيه وجده وابي جده[1] ترجمه في الضوء اللامع ونقل عن ابن حجر في انباء الغمر : انه اقعد ملوك اهل الأرض في مملكة حصن كيفا (يريد اطول ملوك عصره عمراً) الا صاحب صعدة الامام الزيدي فانه اقعد في المملكة منه . ملك الحصن بعد ابيه فدام نحو خمسين

(١) ترجمه صاحب الشذرات كما ترجمه صاحب الضوء اللامع ، ويتفق الضوء مع الشذرات في اسمه واسم أبيه وجده ولكنهما يختلفان في القابهم ، فصاحب الشذرات يلقب أباه بالملك الكامل غازي ونرجح مافي الضوء بأن لقبه الملك المجاهد لتردد هذا اللقب عدة مرات على هذه الصفة .

وقد وهم في اسم (الملك العادل فخر الدين سليمان) صاحب كتاب التثقيف كما نقله عنه القلقشندي في صبح الأعشى (ج ٤ ص ٣١٧) ووهم في لقب أبيه وجده ولكنه يتفق مع الشذرات والضوء في اسميهما . ففي التثقيف أن الذي اتضح له آخراً في رمضان سنة (٧٧٦) أن صاحبها (أي حصن كيفا) الملك الصالح سيف الدين أبو بكر بن الملك العادل شهاب الدين غازي ابن الملك العادل مجد الدين محمد ، ابن الملك الكامل سيف الدين أبي بكر .

فيوافق أن أباه شهاب الدين غازي وجده مجدالدين محمدوأبا جده أبو بكر ، ولكننا نراه يخالف في ألقابهم الملوكية ، فيلقب الأب والجد بالملك العادل ثم يستشكل كيف أن أباً وابنه يكونان بلقب واحد ولكن الوهم الذي وقع فيه هو الاسم الأول وهو — الملك الصالح سيف الدين أبو بكر — لأن الذي كان ملكاً سنة (٧٧٦) هو الملك العادل فخر الدين سليمان بن الملك الكامل غازي صاحب هذه الترجمة لانه توفي سنة (٨٢٧) وجاء فيترجمته أنه بقي ملكاً نحو خمسين سنة فإذا طرحنا واحداً وخمسين من سنة وفاته فانه يكون ملكاً سنة (٧٧٦) ومهما يكن فصاحب التثقيف مشكك فيما ذكره والصواب ماحققناه . راجع صبح الأعشى ج ٤ ص ٣١٧ .

ووهم القلقشندي أيضاً في صبح الأعشى إذ قال : الذي أخبرني بعض قصاد صاحبها سنة (٧٩٦) أن الملك القائم بها يومئذ اسمه سليمان بن داود وذكر لي لقبه فنسيته اه والصواب أن اسم الملك يومئذ هو سليمان بن الملك غازي .

سنة ، وشكرت سيرته ، وحسنت ايامه وله فضائل ومكارم وادب وشعر واعتناء بالكتب والآداب . ويقول صاحب الشذرات انه تسلطن في الحصن بعد موت ابيه وحسنت ايامه وكان مشكور السيرة محبباً للرعية مع الفضيلة التامة والذكاء والمشاركة الحسنة وله نظم ونثر وديوان شعر لطيف ومن شعره :

أربعان الشباب عليك مني سلام كلما هب النسيم
سروري مع زمانك قد تناءى وعندي بعده وجد مقيم
فلا برحت لياليك الغوادي وبدر التم لي فيها نديم
يغازلني بغنج والمحيا يضئ وثغره در نظيم
وقدٌ مثل لدن ان تثنى وريقته بها يشفى السقيم
اذا مزجت رحيق مع رضاب ونحن بليل طرته نهيم
ونصبح في ألذ العيش حتى تقول وشاننا هذا النعيم
ونرتع في رياض الحسن طوراً وطوراً للتعانق نستديم

ويقول القلقشندي ان بعض قصاد حصن كيفا ذكر له ان الملك سليمان يقول الشعر واحضر معه بيتاً مفرداً من نظمه وهو :

وجارية تعير البدر نوراً ولولا نورها عاد الظلام

فنظم القلقشندي ابياتاً وبعث بها اليه صحبة قاصده وأولها

سليمان الزمان بحصن كيفا له في الملك آثار كرام
زكا اصلاً فطاب الفرع منه وطاب الغصن اذ طاب الكمام
بنو ايوب ابقوا منه ذخراً ونعم الذخر والقيل الهمام
وجارية تعير البدر نورا ولولا نورها عاد الظلام

توفي الملك العادل سليمان سنة (٨٢٧) بعد ان ملك نحواً من خمسين عاماً

الملك الاشرف احمد بن الملك العادل سليمان

وهو السابع من ملوك الحصن ترجمه صاحب الشذرات وصاحب الضوء اللامع بأنه صاحب حصن كيفا واعمالها من ديار بكر وليها بعد ابيه في سنة سبع وعشرين وكان مشكور السيرة محبباً لرعيته لوفور عقله وسياسته وديانته مع فضل وميل زائد الى الأدب ومشاركة في فنون وكرم وشجاعة وظرف ذكره ابن حجر في انباء الغمر ، وقال انه خرج في عسكره لملاقاة السلطان [1] على حصار آمد فاتفق انه نزل لصلاة الصبح فوقع به فريق من التركمان فأوقعوا به على غرة فقتل وذلك في شوال سنة ست وثلاثين وثمانمائة ودفن بحصن كيفا · ويقول ابن حجر عنه انه كان فاضلاً اديباً له شعر حسن ووقف على ديوان شعره وهو يشتمل على نوائح في ابيه وغزل وزهديات وغير ذلك وانه كان جواداً محبباً للعلماء ومن نظمه :

بدا حبي وقد خضب اليدين   فأتلف مهجتي بالحاجبين
وبين النوم والجفن اختلاف   كما بين الذي اهوى وبيني
ترفق ياحبيب القلب واعطف   لتنعم بالرضا عيني بعيني
اذا [ما] رمت سلواً إلفي قلبي   يجرجره الجمال بقائدين
وان اذنبت ذنباً ياغزالي   أرى لك عند قلبي شافعين
يعنفني فؤادي كيف اسلو   مليحاً ساكناً في الناظرين
يذوب القلب مني حين يضحي   شروداً للغرام محركين
فزرني ياحبيبي تلق اجراً   ودس فضلاً على رأسي وعيني

انتهى عن الضوء والشذرات

(١) هو السلطان الأشرف برسباي الدقاقي الظاهري تولى مملكة مصر والشام سنة (٨٢٥) وتوفي سنة (٨٤١) خرج سنة (٨٣٦) بالعساكر المصرية والشامية لقتال الأمير التركماني عثمان قرايلوك صاحب ديار بكر وآمد وماردين فحاصره في آمد شهراً ثم صالحه ·

الملك الكامل خليل بن الملك الاشرف احمد

وهو الملك الثامن من ملوك الحصن • وهو خليل بن احمد بن سليمان بن غازي ابن محمد بن ابي بكر بن عبد الله بن توران‌شاه الملك الصالح ثم لقب بالملك الكامل ابو المكارم • استقر في مملكة الحصن بعد قتل والده سنة (٨٣٦) وكان محباً للعلماء خصوصاً الشافعية ، وسار في بلاده سيرة حسنة ونشر العدل ، ووصفه الحافظ ابن حجر بأنه من أهل الفضل وان له نظماً وأنه ارسل بديوان من شعره على عادة ابيه الى الديار المصرية فقرظه له الادباء ومما انتقاه ابن حجر من ديوانه

بانوا فأجروا عيوني　　　من بعدهم كالعيون
في حبهم مت عشقاً　　　ياليتهم قبلوني

وكتب اليه الكمال بن البارزي يمدحه

أبحر الشعر ان غدت　　　منك في قبضة اليد
غير بدع فانها　　　للخليل ابن احمد

وثب عليه ابنه ناصر فقتله في ربيع الاول سنة (٨٥٦)

الملك العادل ناصر بن خليل بن احمد

وهو التاسع من ملوك الحصن قتل أباه وتملك بعده فبقي نحو سبعة أشهر ثم ثار عليه ابن عمه حسن بن عثمان بن الملك العادل سليمان فقتله ثأراً لأبيه

الملك الكامل احمد بن خليل بن احمد بن سليمان

وهو العاشر من ملوك الحصن ، ولما قتل اخوه ناصر اباهما الملك الكامل خليل فر خوفاً من أخيه الى جهانشاه ملك تبريز ، فلما ثار ابن عمه على أخيه ناصر وقتله استدعاه ابن عمه من تبريز وجعله ملكاً على الحصن فبقي فيه ملكاً نحو سنتين ، ثم حصلت ثورة في بلاده وتغلب على ملكه ابن عمه خلف بن محمد ففر الى قلعة ارغيس

من معاملة الحصن ثم الى بغداد ثم الى مصر فأكرمه عتيق جده مرجان العادلي مقدم المماليك وتوفي في مصر أيام الملك الظاهر خشقدم

الملك العادل خلف بن محمد بن سليمان بن احمد

وهو الحادي عشر من ملوك حصن كيفا ثار على ابن عمه الملك الكامل احمد في حدود سنتي (٨٥٨ — ٨٥٩) ففر الملك الكامل واستولى على المملكة فبقي مالكاً سبع سنين . ثم جرى له ما فعله بسلفه ، فثار عليه أبناء عمه : زين العابدين ، وايوب وعبد الرحمن ابناء علي بن محمود بن العادل سليمان فقتلوه وولده هارون في حدود سنة (٨٦٥) وذكره صاحب الشذرات فيمن توفي سنة (٨٦٧) وكان العادل شجاعاً مقداماً ذا بطش وقوة وله نظم ليس بالجيد . واليه الاشارة بقول الصدر بن البارزي مما كتب به اليه .

قالوا بموت الكامل الحصن وهت   وعزها قد حاد عنها وصدف
فقلت ان كان مضى كاملها   فان فيها خلفاً عن من سلف

الملك الصالح زين العابدين

وهو الثاني عشر من ملوك الحصن ثار هو وأخواه ايوب وعبد الرحمن ابناء علي ابن محمود بن العادل سليمان فقتلوا ابن عمهم العادل خلف بن محمد وتملك زين العابدين على الحصن وبقي ايوب وعبد الرحمن كالوزراء ثم اختلف الثلاثة فيما بينهم فهاجم الحصن حسن بيك الطويل (أزون حسن) بن قرايلوك عثمان صاحب آمد واستولى على الحصن وقتل الثلاثة بين يديه صبراً في ذي القعدة سنة (٨٦٦) وبذلك انقرضت هذه السلالة الأيوبية

هذه خلاصة ما اطلعنا عليه من اخبار هذه السلالة ، واكثرها لا يعدو كونه تراجم ، ولكنها بمجموعها تعطينا فكرة قيمة عن هذه الامارة ، وبعد ذلك نتساءل لماذا كانت اخبار هذه الامارة غامضة في اول نشأتها فلم يعرف عن احوالها الا النزر

اليسير ، ولماذا لم يعرف شيء عن ملوكها الخمسة الأول ، وما السبب في ان المؤرخين اخذوا يذكرون تراجم ملوكها منذ منتصف القرن الثامن الهجري ؟

اني ارى ان صغر هذه الدولة وضعفها كان له اكبر الأثر في ذلك ، يضاف اليه أن هذه الدولة تعتبر صاحبة الحق الشرعي في اعتلاء عرش المملكة في مصر والشام كما تعتبر دولة المماليك البحرية (مماليك جدملوك حصن كيفا) مغتصبة لعرش الأيوبيين ، وهاضمة لحقهم ، ومنكرة لنعمتهم ، وعاقة لولائهم .

لذلك كان من المعقول ان لا يجرأ احد من المؤرخين على ذكر دولة ملوك الحصن الا رمزاً خوف تنبه الأفكار اليها ، بخلاف ملوك حمص وحماه التي بقيت امارتهم مستقلة استقلالاً اداريًا في عهد المماليك ، لأنهم ليس لهم صبغة قانونية في حق العرش ولم يسبق لأحد من اجدادهم ان امتلك دمشق او حلب او مصر ، وهي العواصم الكبيرة التي كان يقوم في كل منها مملكة ايوبية كبرى

لذلك كان ابناء ملوك هذه البلدان الثلاث موضع ريبة وحذر في دولة المماليك البحرية ، وكانوا موضع بطش وانتقام من هذه الدولة ايضاً

ولما التقى جيش التتر بقيادة كتبغا مع الجيش المصري الذي يقوده الملك المظفر قطز كان قد انضم الى جيش التتر الملك السعيد حسن بن الملك العزيز عثمان ، والملك الأشرف موسى صاحب حمص — حرصاً على بلادهما من تدمير التتر لها — ولما اسفرت المعركة عن انتصار الجيش المصري وانهزام جيش التتر حضر الملك السعيد الى الملك المظفر قطز ليعتذر اليه فأمر قطز بضرب عنقه فضربت ، وارسل الملك الاشرف صاحب حمص الى قطز يطلب منه امانًا على نفسه وبلاده فأمنه وأقره عليها

فان كان الانضمام الى التتر يعد جريمة وخيانة لا تغتفر فلماذا ينتقم من الملك السعيد فتضرب عنقه ، ويعفى عن الملك الاشرف وتعطى له بلاده ؟

ليس لهذا سبب في نظري الا ان الملك السعيد هو ممن يحق له ان يطالب

بعرش المملكة لأن جده هو الملك العادل اخو صلاح الدين فلذلك حكم عليه بالقتل تخلصاً من مضايقته

ونرى الملك الظاهر بيبرس يحتال على الملك المغيث صاحب الكرك ثم يلقي عليه القبض ويتهمه بأشنع التهم ويقتله شر قتله ، وليس لهذا من سبب الا انه كان احق الناس بتاج مصر

ويحدثنا التاريخ ايضاً بأن الظاهر بيبرس لما رأى الناس يلهجون بذكر الملك القاهر بن الملك المعظم عيسى ملك دمشق اغتاله بسم وضعه في نبيذ قمز[1] سقاه منه

ولم يقف الامر بالظاهر بيبرس عند هذا الحد بل عمد الى أعظم حيلة تسقط حق الايوبيين من عرش بلادهم ، فأعاد الخلافة العباسية في مصر ، لأن الخلفاء العباسيين في نظر الناس هم اصحاب الحق في حكم العالم الاسلامي اجمع ، والدول والملوك الذين يحكمون في البلاد انما هم نواب عنهم ، واصبح الملك الظاهر نائباً في الحكم عن الخليفة العباسي ، وبذلك لفت انظار الناس عن الايوبيين الى الخلافة العباسية الوهمية وكاد للايوبيين مكيدة لم تقم لهم قائمة بعدها

هذه كلها (في نظري) اسباب منعت المؤرخين أن يذكروا احداً من ملوك حصن كيفا خوفاً من بطش المماليك ، حتى اذا استقرت قواعد دولة المماليك في البلاد ، ونسي الناس عهد الايوبيين ، وانفلت عرش الملك من المماليك البحرية ، الى المماليك الشراكسة استطاع المؤرخون ان يذكروا هذه الدولة ويؤرخوا لملوكها ، ولكن أسلوب كتب التاريخ كانت قد تغير واصبح طراز كتبها منذ القرن الثامن الهجري مثل كتب التراجم تجمع بين العلماء والوجهاء والملوك والامراء والتجار الخ ، كما فعل الحافظ ابن حجر ، والسخاوي ، وابن العماد ، وبذلك استطعنا ان نجمع حلقات هذه الدولة المبعثرة وان نبعث تاريخها من جديد ولعل الباحثين من العلماء والمؤرخين يرشدوننا لما لم نطلع عليه فنكون لهم من الشاكرين

محمد أحمد دهمان

(١) نبيذ يتخذ من ألبان الخيل يحب شربه الترك والتتار .

غريب الحديث

لا تعرف العربية بعد القرآن الكريم كلاماً يسامي الكلام النبوي او يدانيه ؛ فصاحةَ مبنى وبلاغة معنى ، وجمال أُسلوب ، وجلال قدر ، وبراعة تركيب ، وروعة تأثير ، وانه لكما يقول شيخ الكتاب ابو عثمان الجاحظ « لم يسمع الناس بكلام قط ؛ اعم نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، و لااعدل وزناً ، ولا اجمل مذهباً ، ولا اكرم مطلباً ، ولا احسن موقعاً ؛ ولا اسهل مخرجاً ، ولا افصح عن معناه ، ولا ابين عن فحواه ، من كلامه صلى الله عليه وسلم » ورب قائل يقول : اذا كان الامر على ما وصفت فمن أين تسللت الغرابة الى بعض الفاظه ، وتطرق التعقيد الى بعض معانيه ، والغرابة لا تساكن الفصاحة ، والتعقيد لايجاور البلاغة ، فنحن نقول ان الكلام النبوي منزه عن التعقيد ، والغرابة بالمعنى الذي يريده المتأخرون من علماء البيان . لأنهم لا يريدون بذلك الا الخروج عن جادة المألوف من الألفاظ بالنسبة الى المتكلم والمخاطب فاذا كان اللفظ من مألوف المخاطبين فليس لأحد ان يسمه بسمة الاغراب . او يصمه بوصمة الابهام ، وان كان غير مألوف عند غير المخاطبين به من الناس . اذ الاعتبار — في هذا الباب — مقصور على من يتوجه اليه الخطاب ، دون غيره . ولو ذهبنا في تفسير الاغراب والتعقيد عند البيانيين غير هذا المذهب ، وقلنا من شرط الفصاحة في الكلام ان يكون عارياً من كل لفظ غير مألوف للناس اجمعين في كل زمان ومكان ، لما وجدنا كلاماً لمتكلم من عرب الجاهلية وصدر الاسلام يستحق ان تخلع عليه حلة الفصاحة ضافية او غير ضافية . لأنا لا نعرف لهم كلاماً منثوراً او منظوماً يخلو من الفاظ غير مألوفة بالنسبة للاجيال المتأخرة تدفع السامع او القارئ منهم الى استنطاق دواوين الادب ومعاجم اللغة ، والاستنجاد بالشروح والتعاليق .

والحقيقة ان الغرابة نسبية تختلف باختلاف الناس والزمان والمكان ، فرب لفظ

يكون شائعاً ذائعاً عند قوم ؛ وعديم الاستعمال قليله عند آخرين . ورب لفظ يكون معروفاً مألوفاً في زمان او بلد ، ومنكوراً مجهولاً في زمان او بلد آخر ، على ما ألمعنا اليه في بحث مفردات القرآن .

هذا واعلم ان النبي (ص) كان يشافه العرب ويكاتبهم أفراداً وجماعات ، وكانوا على ما تعلم من اختلاف اللحون واللغات ؛ وتباعد المواطن واللهجات . وكان يخاطب كل قوم بلغتهم ، وعلى اسلوب تفاهمهم ، وان كان ما يكلمهم به غير معروف تمام المعرفة عند قومه واهله ، بل قد تجهله قبائل معد كلها . فقد روي ان علياً كرم الله وجهه قال للنبي (ص) وقد سمعه يكلم وفد بني نهد بلحنهم : يا رسول الله نحن بنو اب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم اكثره . فقال له « ادبني ربي فأحسن تأديبي » .

ومن يرجع الى أسفار الآثار ، ويقف على تلك الرسائل التي كان يبعث بها النبي (ص) الى بعض قبائل العرب غير العدنانية يأخذه العجب مما أُوتيه الرسول الكريم من البسطة في البلاغة ، وسعة الاطلاع على مختلف لغات القبائل وأساليب تخاطبها . وبعدُ فاذا وجدنا في كلامه شيئاً مما لم يكن مألوفاً في لغات الجمهرة من قبائل مضر ، فلا نحكم على هذه الالفاظ بالغرابة المطلقة ، بل علينا ان نبحث عن مواردها ، ونقف على ما تكتنفها من زمان ومكان . وبذلك نصل الى انها قيلت في موضعها ، ووقعت في موقعها ، بحيث لو حل محلها غيرها مما نسميه مألوفاً الآن لوسم بسمة الاغراب والانذار .

ثم ان كثيراً من الكلام النبوي نقل الينا بالمعنى ، دون الالفاظ ، والنقلة اكثر من ان يحصوا ، وهم مختلفو الانساب قبيلة وبلدا ، منهم القرشي ، والكناني ، والبكري والتغلبي . ومنهم الهمداني والكندي ، والقضاعي ، والزبيدي . ومنهم المكي ، والمدني ، والحضرمي ... الخ .

فاذا نقل أحدهم الحديث بالمعنى كان اللفظ له ، وعلى اسلوب كلام قومه ، أو أهل بلده .

ومن هنا ينكشف لنا السر في ورود بعض الاحاديث على نمط لم يكن مألوفاً في لغة اهل الحجاز ، وان كان الخطاب معهم ، وما ذلك الا لأن اللفظ لبعض الرواة وهو غير حجازي القبيلة او البلد . وهذا هو السر ايضاً في ان المتقدمين من النحاة لم يجعلوا الحديث أساساً في الاستشهاد لتقرير قواعد النحو واستخراج مسائله ، وأول من وسع دائرة الاستشهاد به ، وعول عليه في اثبات القواعد وتقرير المسائل ، امام المتأخرين من النحويين محمد بن عبد الله بن مالك الاندلسي (المتوفى سنة ٦٧٢) ه والحق معه لأن المتقدمين الاولين من نقلة الحديث معظمهم ممن كلامه حجة في العربية . فاذا ابدلوا بعض الفاظ الحديث بألفاظ من عندهم فليس معنى ذلك انهم خرجوا به عن العربية المعربة الى غيرها .

ولنرجع الى ما نحن بصدده من الكلام في تاريخ علم غريب الحديث فنقول :

اول من جمع في هذا العلم شيئاً ابو عبيدة معمر بن المثنى ، جمع فيه كتاباً صغيراً ذا أوراق معدودات . لانه مبتدئ ولأن في الناس اذ ذاك بقية ؛ وغصن اللغة لم يزل وريقاً . فلم تكن الحاجة ماسة الى الكثير مما يعده المتأخرون غريباً ، لأنه لم يكن اذ ذاك بالغريب .

ثم جاء النضر بن شميل المازني فجمع في ذلك كتاباً اكبر حجماً من كتاب ابي عبيدة . وأوسع فيه الشرح والايضاح ، ولكنه لم يخرج عن ان يعد من المختصرات .

وألف الاصمعي كتاباً اربى فيه على كتاب ابي عبيدة من حيث المادة والتبسط في البيان والتوضيح . ثم ان كثيراً من ائمة اللغة جمعوا طوائف من الاحاديث ، وتكلموا على لغتها ومعناها . وهم في الغالب يتواردون على الحديث الواحد ، فيشرحه كل على قدر مبلغه من العلم ، ولم يكد احدهم ينفرد عن غيره بالشيء المهم .

وغبر الناس على هذا الى ان جاء ابو عبيد القاسم بن سلاّم فألف كتابه المشهور

في هذا الموضوع ، وجمع فيه من الاحاديث والآثار ما لم يجتمع في كتاب من قبله . وقد روي عنه انه كان يقول : جمعت كتابي هذا في اربعين سنة ، فهو خلاصة عمري ، وقد انتشر هذا الكتاب وذاع صيته لذلك العهد ، واعتمد الناس عليه في موضوعه .

فلما كان عصر عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ورأى ما عليه الناس من الاعتماد على كتاب ابي عبيدة ، ووجد ان هذا الكتاب لم يأت على معظم الاحاديث واكثر الآثار التي تحتاج الى الايضاح والتبيين — عمد الى تأليف كتاب جمع فيه ما اغفله ابو عبيد في كتابه ، ونحا فيه ما نحاه من طريقة التفسير والشرح . وكان ابراهيم بن اسحاق الحربي معاصراً لابن قتيبة فألف كتاباً واسعاً جمع فيه الشيء الكثير من الاحاديث والآثار . وبسط القول وأطال الشرح ، ولكن الناس زهدوا في هذا الكتاب لأن المؤلف اطاله بذكر الاحاديث بطرق اسانيدها وذكر متونها من اولها الى آخرها . وان لم يكن في بعضها الا الكلمة والكلمتان مما يحتاج الى الشرح والتفسير .

ثم تتابع الأئمة على التأليف في هذا العلم واقبلوا عليه ايما اقبال ، فقلما نجد كبيراً من كبراء اهل العلم الا وله شيء في هذا الباب . مثل شمر بن حمدويه ، وابي العباس ثعلب ، وابي العباس المبرد ، وابي بكر الانباري ، وابي عمر الزاهد وغيرهم .

ثم جاء الامام ابو سليمان احمد او (حمد) بن محمد الخطابي البستي (المتوفى سنة ٣٨٦) فألف كتاباً سلك فيه مسلك ابي عبيد وابن قتيبة ، ولكنه قصره على ذكر مالم يورداه في كتابيهما ، فجاء كنحو من احدهما حجماً .

ومضى الناس زمناً يتداولون هذه الامهات الثلاث ويعولون عليها في بابها ، ولكن هذه الكتب وما قبلها — ما عدا كتاب الحربي — لم تكن مبوبة تبويباً يسهل على الناس المراجعة . وفي هذا ما فيه من العناء على المراجعين ، فاذا اراد المرء معرفة كلمة غريبة وردت في احد الاحاديث لا يهتدي اليها الا بعد جهود كثيرة

زيادة على انه لا يدري ان الحديث المطلوب في اي الكتب الثلاثة هو ، فيحتاج الى استقرائها واحداً واحداً . فلما كان عصر ابي عبيد احمد بن محمد الهروي — وكان معاصراً للخطابي — ألف كتابه المشهور في غريبي القرآن والحديث ، ورتبه مقفى على حروف المعجم ، على ما قلناه في مفردات القرآن . وقد جمع في كتابه هذا مافي كتاب ابي عبيد وابن قتيبة وغيرهما ، واضاف الى ذلك ما تتبعه بنفسه مما لم يرد في كتب من تقدمه .

ثم جاء الامام العلامة محمود بن عمر الزمخشري (المتوفى سنة ٥٣٨) فألف كتابه « الفائق » ورتبه على حروف المعجم . ولكنه كان عندما يريد شرح كلمة غريبة من حديث يشتمل على اكثر من كلمة غريبة يورد الحديث كله او بعضه ويشرح كل مافيه من الغريب . وبذلك يشرح كثيراً من الكلمات في غير حروفها ، فيعسر على المتتبع العثور على مطلوبه بالسرعة ، ولذلك لم يشتهر كتابه اشتهار كتاب الهروي ، مع ما أودعه فيه من الحقائق اللغوية والتدقيقات العلمية .

وجاء ابو موسى محمد بن ابي بكر المديني الاصفهاني فألف كتابه في الغريبين ، جمع فيه ما فات الهروي من غريبي القرآن والحديث على ما علمت في الكلام على غريب القرآن .

وألف ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي كتاباً في الغريب نهج فيه نهج الهروي . بل هو كالمختصر منه .

وكان من معاصريه العلامة المحقق ابو السعادات المبارك بن محمد المعروف بابن الاثير الشيباني الجزري (المتوفى سنة ٦٠٦) فرأى ان احسن ما يرجع اليه في هذا الشأن كتابا الهروي وابي موسى المذكورين . وقد رأى ان الانسان اذا أراد كلمة غريبة يحتاج الى ان يتطلبها في احد الكتابين فان وجدها فيه والا طلبها من الكتاب الآخر . وهما كتابان كبيران في مجلدات . فعمد الى جمع ما فيهما من غريب الحديث مجرداً من غريب القرآن . وأضاف كل كلمة الى اختها في بابها تسهيلاً

لكافة الطلب ، وقد ضم اليهما الشيء الكثير مما لم يوفقا اليه من غرائب الكتب الصحاح كالبخاري ومسلم وغيرهما من الكتب المدونة في اول الامان واوسطه وآخره ، ومن كتب اللغة على اختلافها . وقد سلك طريقة الكتابين المذكورين في الترتيب والتبويب على حروف المعجم ، ملتزماً الحرف الاول والثاني من كل كلمة ، واتباعهما بالحرف الثالث منها ، ناظراً الى الحروف الأَصلية من الكلمة دون الزوائد الا انه كثيراً ما يعتبر الحروف الزائدة في اوائل بعض الكلمات بمثابة الحروف الاصلية ، تسهيلاً على الطلاب ولا سيما الذين لا يكادون يفرقون بين الاصلي والزائد . على انه عندما يذكر ذلك ينبه على أصل الكلمة ، لئلا يظن ظان ان الزائد اصلي فيختلط عليه الأمر .

واسمى كتابه هذا « النهاية في غريب الحديث والأثر » وهو اجل كتاب ألف في هذا العلم واجمعه وعليه الاعتماد في فنه . وقد صار مادة لمؤلفي المعاجم اللغوية من بعده . ولا نعرف ان أحداً ألف بعده كتاباً يساويه او يقاربه غير ان جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ كان قد لخص هذه النهاية في كتاب اسماه (الدر النثير تلخيص نهاية ابن الاثير) . وقال انه ضم الى كتابه هذا كثيراً مما فات صاحب النهاية . ومن وقف على النهاية ثم وقف على هذا الكتاب لم يرق لنظره الرجوع اليه مرة أخرى ، لأن الجلال السيوطي بتلخيصه هذا ذهب برونق الاصل وجماله ، وضيق منه واسعاً فسيحاً . هذا وانما تزاحمت اقلام اهل العلم في باب غريب الحديث اكثر من ازدحامها في باب مفردات القرآن . لأن الاحاديث والآثار فسيحة الرقعة منتشرة الاطراف ، وواسعة الارجاء . وقلما توفق العالم المبرز الى استقصاء اكثرها . فيأتي عالم آخر من بعده فيستدرك عليه كثيراً مما فاته . ثم يأتي ثالث فيستدرك على الثاني وهكذا على ما علمت فيما مر . بخلاف القرآن الكريم فانه مجموع بين دفتين ، متواتر بكل مافي معنى التواتر من قوة . وبهذا يسهل على اهل العلم استقصاء كل مافيه من المفردات . فلم يبق الا اختلاف انظارهم في تفسير بعض الكلمات ، واختلافهم

في ايجاز الشروح او الاطناب فيها ، واختلاف اذواقهم في الترتيب والتبويب ، والتنقيح والتهذيب ، وهذه امور ليست من الصعوبة بمكان . بخلاف ما يعانيه المؤلفون في غريب الحديث من التتبع الكثير ، والاستقراء الواسع ؛ هذا ابن الاثير بعد ان وقف على ما وقف عليه من جهود العلماء في هذا الباب ، واستقرى ما وصل اليه جهده من المصنفات الكثيرة في الحديث والآثار ، تجده مع ذلك كله يقول في خطبة نهايته : « كم يكون قد فاتني من الكلمات الغريبة التي تشتمل عليها أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه وتابعيهم جعلها الله ذخيرة لغيري يظهرها على يده ليذكر بها . ولقد صدق القائل : كم ترك الاول للآخر .

يقول هذا وهو من هو في غزارة العلم وسعة الاطلاع ، وطول الباع ، في علوم الشريعة وفنون الآداب .

طه الراوي



من ذخائر قبة الملك الظاهر

تاريخ علماء اهل مصر لابن الطحان

مجموع ١١٦ (١٢)

اسم الكتاب والمؤلف : —

و : ١أ : الجزء الأول [والثاني كما في و : ١٧ب] من تاريخ علماء أهل مصر تأليف أبي القاسم يحيي بن علي بن محمد بن ابراهيم الحضرمي المعروف بابن الطحان .

سمع المؤلف الحديث قبل سنة ٣٦٨ كما ورد في ترجمة صالح بن علي الحصيني (و : ١٨ب) وتوفي سنة ٤١٦ كما في كشف الظنون في مادة تواريخ مصر ٢٣٢/١ وفي فهرس معجم البلدان طبعة وستنفلد ٧٦٨/٦ . ولم نعثر للمؤلف على ترجمة ويقول بروكلمان ان له ترجمة في (Wustenfeld: geschichte ص ١٨٠) .

وصف موضوع الكتاب ومحتواه

ذكر ابن خلكان (٢٧٨/١ من طبعة سنة ١٣١٠) وصاحب كشف الظنون ٢٣٢/١ ان لابي القاسم الحضرمي ذيلاً على تاريخي ابن يونس الصدفي (— ٣٤٧) وأحد هذين التاريخين كبير لاهل مصر والآخر صغير للغرباء الواردين اليها . ويخيل من اسم كتابنا انه ذيل على تاريخ اهل مصر الكبير .

والحق انه ذيل على الاثنين لأن فيه تراجم علماء غرباء مروا بمصر كابن عبد ربه (و : ٣أ) .

ويتفق هذا مع ماذكر ابن خلكان (٣٠٥/١) من انه ذيل لتاريخي ابن يونس المصري دون تفصيل وما ذكره السخاوي في الاعلان بالتوبيخ (ص ١٣٠) من انه ذيل لهما معاً ويختلف مع ما ذكر ابن زولاق (في الولاة والقضاة للكندي ص ٥٨٥) من

ان له كتاب الغرباء وذكر ترجمة شخص محلها في القسم المخروم من كتابنا · ويعتقد بروكلمان ان ذيل تاريخ مصر غير كتابنا هذا (GALS ١/٥٧١) ولعل اختلاف الاسم دعاه الى ذلك ·

يترجم الكتاب للمصريين او من وردوا الى مصر من المحدثين والرواة خاصة ويرد فيه حيناً ذكر الشعراء والفقهاء والمعدلين والمعلمين والمؤدبين والقضاة والنحويين والمؤرخين والوراقين من أهل السنة · وهو مرتب على حروف المعجم لأسماء العلماء ، لكن ترتيبه غير مضبوط فقد يرد اسم جناح قبل جعفر وحبيب بعد حمدان ولكن لا غلط في ترتيب الحرف الاول من الاسم · والتراجم مختصرة ، يذكر المؤلف اسم العالم بالتفصيل وان كان عرفه قال عرفته والا قال حدثت عنه وقد يذكر تاريخ الوفاة ويورد بعض قصص ويذكر أشعاراً بالمناسبة · واغلب العلماء الذين ترجمهم ممن عاشوا في القرن الرابع غير ان منهم من عاشوا في القرن الثالث بل اوائله كعلي بن عبد الله الحضرمي ولد بمصر سنة ١٨٠ وتوفي سنة ٢٤٥ (و : ١٩ [ا]) وكان يجب الا ترد هذه الترجمة فيه بصفته ذيلاً لابن يونس ولعله ذكرها لانها اهملت في ابن يونس · وقد الف الكتاب بعد سنة ٤١١ فقد ذكر عالماً توفي في هذه السنة (و : ٢٥ [ا]) · واكثر التراجم التي وردت فيه مهملة في كتب التواريخ المطبوعة ، وكذلك فالكتاب يكشف عن تراجم علماء مصريين مجهولين ·

وننقل على سبيل المثال تراجم الشعراء الذين ورد ذكرهم

و : ٣[ب] : احمد بن محمد بن عبد ربه الشاعر بالاندلس يكنى ابا عمر حدثونا عنه

و : ١٢[ا] : الحسن بن علي بن احمد بن وكيع بن خلف الشاعر ابو محمد اصله بغدادي ومولده هو بتنيس سمعت منه

و : ١٥[ب] الخليل بن احمد الشاعر ابو القاسم توفي في جمادى الاولى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة انشدني الخليل بن احمد لنفسه

يا خالق الخلق انت لي جارُ   وانت للمذنبين غفار

فارحم عُبيداً أتاك معترفاً خاطٍ له بالذنوب اقرار
ان تعف عنه فالخلد مسكنه وان تعاقب فداره النار

وأنشدني الخليل لنفسه

شيب الفتى موت له عاجل يأتيه موت بعده آجل
فعمره عنه به راحل والموت في ساحته نازل
من لم يزل عن ملكه طايعاً فالملك عنه عنوةً زايل

و: ١٧ آ: سعيد بن احمد بن محمد بن عبده الشاعر مولى بني امية يكنى اباعثمان حدثونا عنه .

و: ٢٢ ا: عثمان بن حجاج بن يوسف الخولاني الشاعر ابو عمرو، توفي في صفر سنة ست وستين وثلثمائة سمعت منه، انشدني عثمان بن حجاج لنفسه

سلام على الأيام يوم حصولنا على شرْجع جوف القليب توارى [1]
وتوحش دار بعد انس بأهلها بحادث ليل تاتا [2] ونهار

اول النسخة

و: ١ آ: عونك اللهم قال ابو القاسم يحيى بن علي .. باب ابراهيم، ابراهيم بن عبد الله بن محمد بن يحيى المعافري

و: ١٧ آ: تم الجزء الأول من الأصل

آخرها

و: ٣٠ آ: محمد بن عبد الله بن الحسين بن عبيد البزاز

فالكتاب غير كامل ينقصه من الاسماء ما يقارب الثلث ولم يرد فيه من اسماء المحمديين الا اربعة .

وصف النسخة المخطوطة

المخطوطة في حال حسنة الا انها كما رأينا مخرومة وتجليدها في المجموع الذي الحقت

(١) في الأصل سرجع ولا معنى لها، والشرجع: النعش، والقليب: البئر أو العادية القديمة منها (القاموس) ومعناه هنا القبر (٢) لعلها «تارة» .

يدل على أنها كانت ناقصة مذ كانت في الخزانة العمرية قبل سنة ١٢٩٧ ه . ورقها اسمر متين ، عدته ثلاثون ورقة ، ابعاده ١٨/١٤ سم ، عدد اسطره يختلف بين ١٧ الى ٢٠ سطراً ، ويبلغ هامش الكتاب ثلاثة سنتمترات . خطها مقروء منقط على الغالب ومضبوط في بعض محاله . وفي النسخة بعض أغلاط في النقل اشير اليها باشارة خاصة بخط ناصل يغلب ان يكون من قلم محمد الذهبي ، وصححت حيناً واهمل حيناً تصحيحها . وبمقابلة النسخة ببعض نصوص من الكتاب وردت في معجم البلدان لا سيما ٦٧٦/٣ نبين وجود بعض الاختلاف البسيط في النص عما نقل عن الكتاب . الخط كبير الحرف وقد كتبت اوائل الاسماء بخط كبير ليهتدى اليها والكتابة متتابعة دون فاصل اللهم الا في الاشعار فقد خصصت لها اسطر خاصة .

كتبت النسخة قبل سنة ٦١٦ او ٦١٩ لأنه توفي في احديهما ابن الانماطي الذي ملك الكتاب .

وورد في الورقة الاولى الوجه الاول مايلي ولعل كل ذلك بخطوط العلماء المذكورين:

فرغ منه محمد بن [احمد بن عثمان بن قايماز] الذهبي (٦٧٣ — ٧٤٨)

طالعه وانتقى منه احمد بن احمد بن عبد الهادي

لخصه يوسف بن عبد الهادي (٨٤٠ — ٩٠٩)

علق منه محمد بن المحب ومحمد بن سند

ملك القاضي الفقيه ... تقي الدين ابي الطاهر اسماعيل بن [عبد الله] الانماطي (توفي سنة ٦١٦ او ٦١٩)

وقفه وجميع كتبه واجزائه الشيخ المحدث ابو الحسن علي بن مسعود بن نفيس [سنة ٦٦٧ كما اشار الى ذلك بخطه في و : ١' من مخطوط الظاهرية رقم حديث ٣٣٩ وكان وقفه في دار الحديث الضيائية ومنه انتقل الى العمرية ومن العمرية الى الظاهرية .]

ونسختنا هي الوحيدة التي ذكرها بروكلمان

يوسف العش

مخطوطات ومطبوعات

الاسلام والحضارة العربية

تأليف الأستاذ محمد كرد علي

طبع في مطبعة دار الكتب بمصر ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٣٤ — ١٩٣٦

هذا كتاب كبير يقع في مجلدين يقرب عدد صفحاتهما من الألف ، خصه مؤلفه الجليل بالبحث في الاسلام والحضارة العربية بحثاً مسهباً مترعاً بالأخبار والاسرار حتى غدا مرجعاً في هذا الباب .

وموضوع الكتاب ذو قيمة وشأن . ما أحسب أن أحداً عني به قدر ما عني به الاستاذ المؤلف ، وما أحسب ان عالماً حفل باظهار حضارة الإسلام وسرد الدلائل عليها ، على الوجه الذي اظهرها هو فيه ، لأن تبيان هذه الصفحات الناصعات من تاريخ العرب ، والجلاء عن آياتهم البينات في الحضارة يتطلبان بسطة في العلم وصحة في النظر ، وذلك مالا يتهيأ لكل انسان ، دع عنك ما يستدعيانه من جهد دائم وما يتطلبانه من وقت طويل .

وقد تناول الاستاذ بالبحث طائفة من الموضوعات الهامة ، فذكر في المجلد الاول منازع الناقمين على الإسلام وناقديه ، اشباه رنان وجانو وغيرهما . وجلّى عن الشعوبية في الشرق والغرب فعرّفها وردّ على أهلها ، وفصل المسائل التي يرددها الشعوبيون كالقرآن والطلاق والحجاب والربا والرق والمسكرات . ودفع دسائسهم فيها . وهذا الفصل من امتع فصول الكتاب .

ثم بين المؤلف حالة العرب قبل الاسلام . وما اصبحوا عليه في دينهم الجديد ، والأشاوي التي امتازوا بها ، وسرد رأي لوبون ودوزي وغيرهما في الفتوح العربية ، وتكلم على ثروة العرب وعلومهم ، وأوضح أثر اللغة العربية في لغات الشرق والغرب ، وحالة اوربة في شباب الإسلام ، وأثر علوم العرب في اوربة ، وما كان للمسلمين والعرب من فنون ، وما كشفوه واخترعوه ، مستشهداً على ذلك بأقوال اساطين الغرب

وعلمائه ثم تطرق الى ذكر مدنية العرب في الاندلس وما نشأ عنها من علم ورقي وعمران ثم أوضح اثر العرب في صقلية ومدنيتهم التي تركوها فيها ، وكان ذلك مجهولاً لايعلمه الا القليل ، وانتقل الى البحث في الحروب الصليبية ، ومجازر اهلها وأثرهم في المسلمين ، وأثر المسلمين فيهم ، وسياسة صلاح الدين ، وهذا الفصل مترع بالأخبار واذكر اني سلخت زمناً في قراءة ما كتب عن الصليبيين ، فما وجدت بحثاً اكثر سعة واوفر مادة مما كتبه المؤلف .

اما المجلد الثاني فيبحث في العلوم والمذاهب في الاسلام كنشأة علم الحديث وعلم الكلام والتصوف والفلسفة والادب ، وميلاد الفرق الاسلامية ، وما لقيه العلماء من عنت واضطهاد في نشر أفكارهم ومذاهبهم . ثم بحث في الادارة الاسلامية فتناول ذكر الادارة عند كل خليفة منذ عهد الرسول الى زمن العثمانيين . وقلّ ان تجد مثل هذا الفصل في سعته واستقصائه وغزارة أخباره وأردف ذلك ببحث مطنب عن السياسة زمن الرسول والخلفاء الراشدين وبني أمية وبني العباس والمماليك والعثمانيين .

والمؤلف في هذا كله يبدو حافل الخاطر يتدفق تدفق الينبوع الثر . لا يدعك تقرأ خبراً حتى يردفه بآخر . ولا يكاد يجلو أمراً حتى يلحقه بثان ، بأسلوب مرسل تترقرق فيه السلاسة والسهولة والصفاء ، وبايضاح لا تدليس فيه ولا موالسة هذا مع تنبيه على الدسائس ودحض للهواجس وتجرد من العواطف وبعد عن الأوهام .

لا جرم أن هذا الكتاب من العيون التي يحتاج اليها الشباب المتأدبين ولا يستغني عنها الشيوخ العلماء . أما الشباب فيجدون فيه ما جهلوه من الاسلام وحفول تاريخه وسمو تراثه . وأما الشيوخ فلا يعدمون فيه مرجعاً وسنداً ، وليت شعري من ذا الذي يكتب له أن يقرأ مؤلفاً فيه زبدة ستمائة كتاب ما بين مخطوط ومطبوع ونادر فلا يسارع اليه ولهان ، او يقدّر له أن يقطف في كتاب ثمرة سنين طوال حافلات بالدرس والمطالعة فلا يبادر نحوه عجلان ؟

صلاح الدين المنجد

العقد الفريد

جزؤه الأول

أصدرته لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٠ م
بتصحيح الأساتذة : أحمد أمين ، أحمد الزين ، ابراهيم الأبياري

لا يخفى على كل متأدب ان العقد الفريد لابن عبد ربه من أمهات كتب الأدب وأنه اجمعها لفرائده ونوادره . وان طبعاته السالفة ملئت خطأ وتحريفاً . وان الحاجة ماسة الى اعادة طبعه طبعةً صحيحة تلائم منزلته . وتفي بحاجة الطلاب الذين أُدخل هذا الكتاب في برامج مسابقاتهم الامتحانية — كل ذلك جعلنا نرحب بهذه الطبعة الجديدة ونقول ها قد تحققت الأمنية . وعثر على الضالة .

وصفحات هذا الجزء تبلغ ٤٧٦ صفحة ذات قطع كامل . منها نحو ربعها يتضمن استدراكات وفهارس في المطالب المختلفة . أما العناية بالطبع والورق وجودة الحرف والتصحيح والتعليق فقد وثق بها القارئ وثوقه بلجنة التأليف التي طبعته . و (هيأة) الأساتذة التي صححته . على أن ذلك كله لم يحل دون وقوع أخطاء تفطن لها (استاذ جليل) فهو يتتبعها وينشرها مقالاتٍ في مجلة (الرسالة) . وقد اطلعنا من تلك المقالات على ما نشر في أعداد (٣٩٩) و (٤٠١) و (٤٠٣) و (٤٠٧) من السنة التاسعة . ومن ثمّ أهملنا في مقالنا هذا التعرض لشيء من تلك الأخطاء وتصحيحها محيلين القارئ الحريص الى مقالات (الاستاذ الجليل) المذكورة . اللهم إلا ما عثرنا عليه عفواً ونحن نتصفح الكتاب : من ذلك ماجاء :

في ص ١٤١ قول المصححين في تعليقهم على شعر عمرو بن معدي كرب (أعاذل عُدّتي بزّي ورمحي) قالوا إنه جاء في الأغاني هكذا (أعاذل عدتي بَدَني ورمحي) و (بدني) تحريف اه أقول لاتحريف ولاتصحيف فان البدن معناه الدرع فكأن الشاعر يقول (أعاذل عدّتي درعي ورمحي) أما في الرواية الأخرى فهو يقول (عدتي سلاحي

ورمحي) وليوازن القارئ بين الروايتين ان شاء . قال ابن سيده : البدن الدرع القصيرة على قدر الجسد . وقيل هي الدرع عامة . وبه فسر ثعلب قوله تعالى (فاليوم ننجيك ببدنك) قال بدرعك . وذلك أنهم شكوا في غرق فرعون فأمر الله عز وجل البحران بقذفه على دكة في البحر ببدنه اي بدرعه فاستيقنوا حينئذ أنه قد غرق لأن الدرع درعه .

وفي ص ٣٧٢ ذكر صاحب العقد قول الشاعر في عبد الله بن طاهر

اشربْ هنيئًا عليك التاج مرتفقًا   من شاذياخَ ودع غمدان لليمن

أقول صوابه (في شاذياخ) وشاذياخ بستان الممدوح فالشاعر يقول له اشرب فيه كما هو في الرواية الأخرى (إشرب هنيئًا ... بالشاذياخ) على ان هذا الشاعر في قوله هذا إنما حذا حذو الشاعر الأول الذي قال في سيف بن ذي يزن :

إشرب هنيئًا عليك التاج مرتفقًا   في قصر غُمدان داراً منك محلالا

ومثل قول هذين الشاعرين القول المنسوب الى يزيد بن معاوية

اذا اتكأت على الأنماط مرتفقًا   في دير مُرّان عندي ام كلثوم

وكلمة (مرتفقًا) الواردة في هذه الأشعار تصحفت الى (مرتفعًا) بالعين وهو خطأ وصوابه القاف . ولكن ما معنى (مرتفقًا) بالقاف ؟ فسر مصححو العقد (مرتفقًا) بقولهم (ثابتًا دائمًا) والصواب أن تفسر بما فسرها به الشراح وأرباب المعاجم وهو متكئًا على مرفق يدك أو على مِرْفقتك أي وسادتك وهي جلسة الرافه الوادع او المتكبر المتعظم . راجع اللسان في مادة (رفق) ص ٤٠٩ أما ماجاء في التاج في مادة (رفق) وهو قوله (وارتفق اتكأ على مرفق يده أو على المخدّة . وامتلأ . والمرتفق الواقف الثابت الدائم) فالعبارة الأخيرة منه لم نجدها في غيره وهي مقحمة في جملة كلام ليس من أصل التاج وانما هو هامش أو تعليق دخيل عليه فراجعه . ولو صحت العبارة لكان المعنى إشرب يا ابن ذي يزن في قصرك أو ياابن طاهر في بستانك واقفًا ثابتًا دائمًا ! ! وهذا قول هراء لا طعم له .

وفي ص ٢٤٠ قوله (ضراعة سِنه وحداثة مولده) فسر المصححون (ضراعة سنه) بمعنى (شبابه) وكلمة (ضراعة) لا تكون بهذا المعنى وانما هي مصحفة وصوابها (خراعة

سنه) بالخاء المعجمة : ففي اللسان ان الخراعة اللين من قولهم امرأة خريع أي شابة ناعمة لينة ٠ وقال الأصمعي (الخريع) هي المرأة التي تتثنى من اللين ٠ والخريع ايضاً الغصن لنعمته وتثنيه ٠ وامرأة خِرْوَعة حسنة رخصة لينة ٠ قال ابو النجم (فهي تمطى في شبابٍ خروع) اه والسن معناها العمر فمعنى خراعة سنه أنه في لينٍ ورخوصة ونعومةٍ من عمره ٠

وفي ص ١٢٩ يقول الشاعر (اذا هابَ اقوام تجشمت كَلّها) وهي احدى روايات هذا البيت وقد قال المصححون ان قوله (تجشمتُ كلها) لا معنى له ٠ والحق أن له معنى إذ (الكلّ) هنا بفتح الكاف وتشديد اللام بمعنى ثقلها اي ثقل الحرب وعبئها كما في رواية (تجشمت هولها) والتجشم التكلف ٠ فكان الأجدر ان يقال (إن قوله (تجشمت كلها) له معنى لكنه لا ينتظم أو لا ينسجم مع الشطر الذي بعده وهو قوله (يهاب حُمياها الألد المداعس) ٠

وفي ص ٢٨ قال المصححون (استكفيت أي وليت الاكفاء) وصوابه الاكفياء جمع كفيّ كغنيّ ٠ أما الاكفاء فجمع كفؤ بمعنى مثل ولا يجيء منه فعل على وزن استفعل بهذا المعنى ٠

وفي ص ٣٣ قال المصححون في تفسير قول الشاعر (فلم يترك لها سبد) ما نصه (السبد الشعر ويكنى به عن الإبل ؟ كما يكنى بالوَبر عن الغنم ؟ فيقال : ماله سبد ولا لبد ٠ أي ذو وبر ولا صوف متلبد يريد إبلاً وغنماً بنصّه اه) وهذا الكلام كتب بعجلة وتحريره أن يقال (السبد الشعر وهو للمعز ٠ كما أن الوبر للابل ٠ والصوف واللبد للغنم ٠ وقولهم ماله سبد ولا لبد بمعنى لا يملك شيئاً من شعر ولا صوف وهو كناية عن الفقر أو المعنى انه لا يملك شيئاً من ذي سبد ولا ذي لبد أي لا يملك معزاً ولا غنما) .

هذا ومن كان حريصاً على تصحيح نسخته التي اقتناها من هذه الطبعة النفيسة فليرجع الى مقالات (الاستاذ الجليل) المنشورة في الرسالة فإن فيها غناء

ومجلة المجمع تشكر لحضرات الناشرين والمصححين عنايتهم بابراز هذا الكتاب وتستزيدهم من العناية في تصحيح الأجزاء الباقية

المغربي

آراء وانباء

استدراك ورجاء

حول كتاب الاجابة

ذكرني ما نشر عن كتاب «الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة»[1] بدين عليّ، أرى من حق العلم أن أنوه بصاحبيه في هذه المجلة اعترافاً بفضلها وغيرتهما على الحديث الشريف :

أما الأول فهو الشيخ سليمان الديراني الذي قرأ الكتاب بامعان وتحرٍ وقابل النقول بالأصول التي عزا اليها الزركشي ثم نبهني الى :

١ — ص ١١١ س ٨ قوله : « لم ينزل البلاء بالرسل حتى خافوا ... الخ » صوابه « لم يزل ... الخ »

٢ — ص ١٢٨ قوله : « هم الذين يكنزون .. » صوابه « هم الذين يكتمون . »

وأما الثاني فهو العلامة الاستاذ كرنكو الذي انتدب الى خدمة النسخة فور وصولها إليه، ثم كتب الي كتاباً عنها، أقتطف منه فقرة النقد فقط لما فيها من فوائد في أماكن بعض كتب الحديث الأمهات، قد تعني المشتغلين بهذا العلم، قال :

« ... إنكم مع جودة التهذيب وإتقان النشر وهمتم في عزو كتاب المسند للبزاز إذ هو بلا شك ابو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار — بالزاي ثم بعد الألف الراء — المتوفى سنة ٢٤٢ (انظر أنساب السمعاني) وقد حمل الي وقت إقامتي في الهند، العالم عبد اللطيف الحرازي نزيل مدينة (لكنو) مجلداً فيه الجزء الثالث من هذا المسند، وأعتقد أن أجزاء أخر موجودة في خزائن استانبول .

و ص ٣٨ سطر ٣ اللغوي المذكور هو أبو القاسم عمر بن ثابت الثمانيني المتوفى سنة ٤٤٢ .

وص ٦٢ سطر ١٣ كتاب (ايضاح مالا يسع المحدث جهله) فهو موجود في عدة

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي المجلد السادس عشر ص ١٢٩

نسخ في لندن واستانبول وبانكي‌پور ورامپور من بلاد الهند (انظر بروكلن ١ وتكملته ١/٦٣٣) والمؤلف هو الميانشي بالياء المثناة نسبة الى قرية في إفريقية ·

أما كتاب المعجم الاوسط للطبراني فهو مفقود سوى المجلد الثالث وهو الأخير فمن نسخة قديمة في خزانة كوپريلي‌زادة بإستانبول ولكن لاأعرف مايضمن هذا المجلد·

وفي ص ١٣٣ سطر ١٧ وص ١٣٤ الخ الراوي عن ابن مسعود هو جابان بالجيم كما هو مضبوط في كتب الرجال ···»

ومع أن أكثر هذه التصويبات مطبعية لا تعدو النقطة فان القاريء لا ينتبه الى صوابها، وليس يسع المرء الا إكبار خدمة العلم المخلصين وشكرهم من أي ملة كانوا ·

هذا وفي الكتاب مواضع تركت بيضاء لأن خط المؤلف فيها كان كهذا الذي يكتبه الاطباء باللاتينية الى صيادلتهم، وقد أعوزتني المصادر التي نقل عنها الامام الزركشي وخاصة كتاب شعب الايمان للبيهقي لم أر أحداً يعرف له وجوداً ·

فالرجاء ممن استطاع تصحيح شيءٍ عجزنا عنه ان ينبهنا اليه وله على ذلك شكر العلم وثواب الله [1]

سعيد الافغاني

---

(١) فيما نشر الاستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار عن (الاجابة) ص ١٢٩ (المجلد السادس عشر) أشياء تحتاج إلى استدراك :

فقولي ص ٥ س ٧ « وعروة وابن الزبير » مقصود لا سهو فيه ، فابن الزبير إذا أطلق انصرف إلى عبد الله وكل من عبد الله وعروة أخذ وروى عن عائشة ·

وقول عائشة : « أدخل البيت الذي دفن معها عمر ص ٧٢ سطر ١٣ » لا خطأ به وحذف « فيه » منه جائز لغة كما هو معلوم من كتب النحو (انظر بحث الموصول في حاشية الخضري) · وقد صورت في النسخة الصفحة الوارد فيها هذا القول · والحديث لا يصحح اعتباطاً ولا عفو الخاطر وانما يرجع فيه إلى دواوينه وتتبع أصوله · ولو رجع الأستاذ البيطار إلى مستدرك الحاكم المطبوع بالهند (ج ٤ ص ٧) لوجد الحديث كما هو مثبت في النسخة تماماً ·

وكذلك قول الأستاذ : والصواب : « أعلى الدلاء من أسفلها » غير صحيح وهذا الحديث ذكر في السمط الثمين ص ٤٤ محرفاً أيضاً وانما الصواب فيه : « إن الغيرى لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه » أنظر شرح المواهب للزرقاني ٤ : ٢٧١

ومراعاة النطق في رسم داوود أولى ، وكلٌّ جائز ·